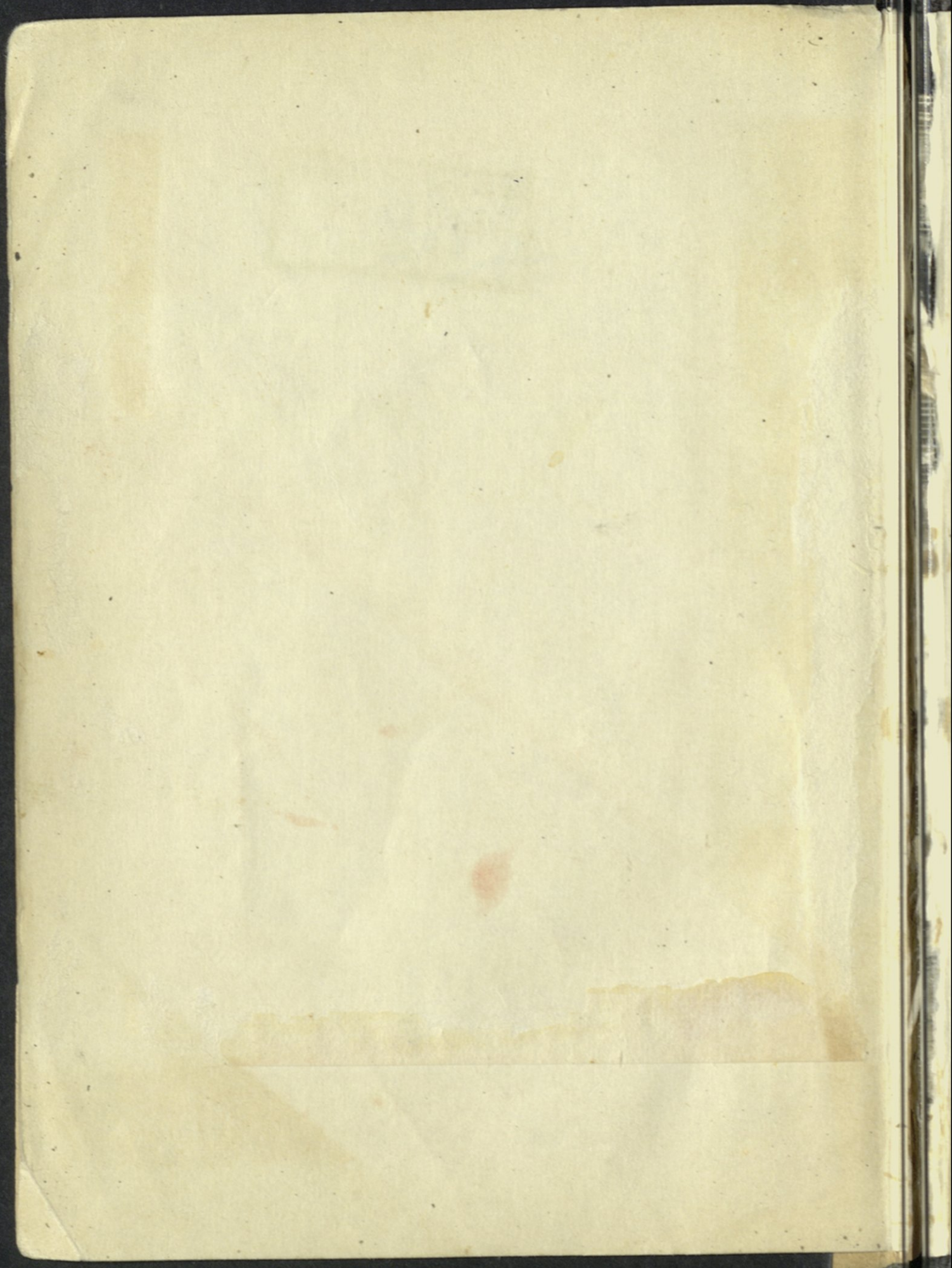


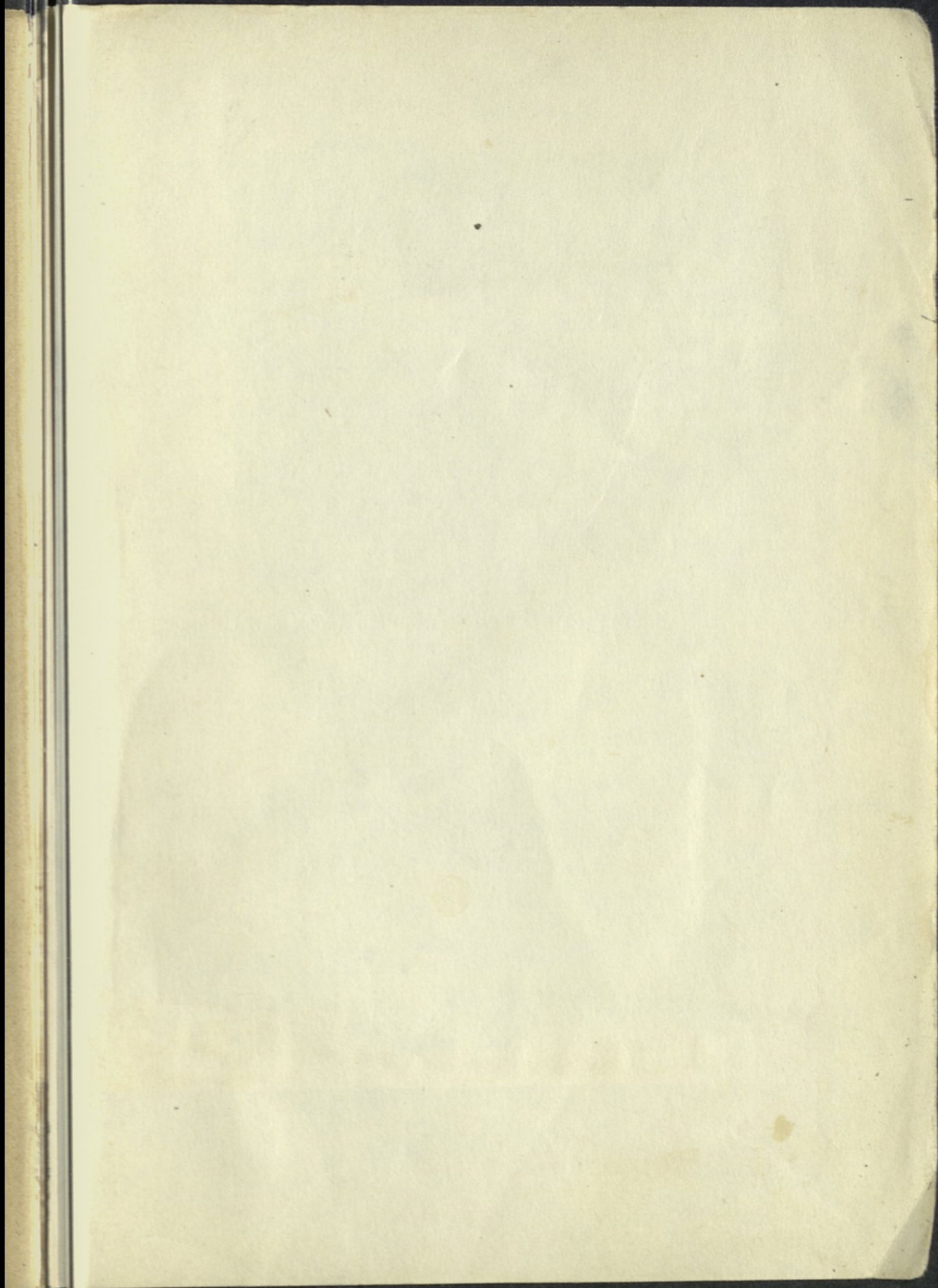
پہنسی

مترانہ

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT









سِقْرَاط

۲۱



الدكتور على مافظ بجنسي

183.2

B151sA

C.1

سقراط

٧٨

اقرا

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٧٨ — مايو سنة ١٩٤٩



جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بصر

أثينا

أثينا مدينة سقراط أعدت بنيتها في الزمان السعيد للجمال
والخير . وحمل السابقون الأولون منهم صور الجمال في القول
والفعل إلى منزلة لا تداني لأنهم انصرفوا عن سائر الدنيا إلى
ذلك الجمال ، وصارت الإنسانية في لغتهم رجلين إغريقياً
أو « بربراً » ولكل منهم مذهب ونظر في الحياة ، فالإغريقي
القديم العريق لا يحب شيئاً كحبه للحرية وكرامة الإنسان
غير ناظر بعد هذا إلى ما يستمسك به البربار من قيم ، كالذي
يقصه بلوتارك عن سولون مشرع أثينا حينما قدم على ملك
الميديين . فقد ذكر أن سولون مشى في قصر هذا الملك فلقى
أمراء ورأى عليهم ثياباً من حرير ورأى من ورأهم تبعاً وحراساً
وعبيداً حتى ظن كل واحد منهم ملكاً ، ثم قدم آخر الأمر على
مجلس الملك فوجد عليه ثياباً من حرير ذات لون بهيج مزينة
بما صنعت العقول من جواهر ، يريد أن يهر بهيئته سولون .
غير أن سولون لم يحفل بشيء مما رأى ، ولم يعجب بشيء مما
تزين به هذا الملك ، وأبدى للذين يعقلون أنه يحتقر هذه

القلوب الدنية ، فأمر به الملك أن يشهد كنوز الذهب والفضة
وما في القصر من متاع ، فرأى سولون كل ذلك مثنى وثلاث
ثم رجع بعدئذ إلى مجلس الملك فسأله ذلك الملك : هلا رأيت
أحداً أسعد مني ياسولون ؟ فقال سولون : بلى ! رأيت رجلاً
من أواسط أهل أثينا يدعى « تيللوس » وكان رجلاً صالحاً
وخلف من بعده ذرية طيبة محترمة وترك مالا غير كثير ووهبته
المقادير السعادة آخر الأمر ففضى مجيداً في الذود عن وطنه .
فظنه الملك مخبولاً سفيهاً غيباً ، لأنه لا يرى سعادة هذه الحياة
في المال الكثير وفي الذهب والفضة ولا يراها في جاه ملك
قوى ذي بأس شديد ، ويراها في عيش رجل خامل بسيط .
ثم سأله مرة أخرى : ومن رأيت أسعد مني بعد « تيللوس » ؟
فقال : رأيت « كليوبيس » و « بيتون » وكانا أخوين متحابين
يجبان أمهما وكان على أمهما أن تذهب إلى المعبد ذات يوم
من أيام الأعياد في عربة يجرها ثوران ، فلما رأيا أمهما تنتظر
ولم تحضر البقر حمل كل منهما طرفاً من زمام العربة وجرا العربة
بأمهما إلى المعبد والناس معجبون يحسدون هذه الأم السعيدة
مما أنجبت . ثم قفلا راجعين بعد ما أديا الصلاة ، ثم حضرتهما
الوفاة في ليلهما دون أن يجداً أماً . وقد أصابهما ذلك الذكر
الحميل والشرف . فغضب الملك ، فقال سولون : أيها الملك

إن الآلهة وهبتنا نحن الإغريق أوسط الأمور وآتتنا الحكمة
 فيما آتتنا ، وهي حكمة شعبية بسيطة ليس فيها شيء من أبهة
 الملك وكبريائه ، وهذه الحكمة تعظنا أن حياة الإنسان عرضة
 لغير الزمان ، وتعظنا ألا نُسَلِّم سعادتنا لعرض قد يزول ، وألا
 نحسد رجلاً قد تزول عنه الدنيا ؛ لأن الزمان يأتي على المرء كل
 حين بما ليس في الحسبان ، فإذا حفظت الآلهة على رجل
 سعادته حتى آخر أيامه عددناه سعيداً . أما من يعد حياً
 سعيداً وهو لا يدري ما تخبؤه له الأيام ، فمثل كمثل من يحكم
 بالنصر لمصارع قبل خاتمة الصراع . وقد أغضب ذلك القول
 الملك ، وكان في المدينة يومئذ « إيزوب » صاحب القصص
 فعلم ما كان بين سولون وبين الملك ، فلام سولون وقال له :
 ياسولون إما أن نتجنب القرب من الملوك وإما أن نقربهم لنقول
 لهم ما يسرهم وما يرضيهم . فقال سولون : بل على العكس
 إما أن نتجنب الملوك وإما أن نقربهم فنقول لهم الصدق والنصح .
 وكانت أمة سولون قد هدتها سجية الجمال إلى الخير مثلما هدتها
 إلى الشعر والسياسة والتصوير وما نبغت فيه من سائر الفنون .
 وكان الفرد فيهم حراً وسيداً لا يدين لأحد بشيء . وإذا اجتمعت
 المدينة في « الاجورا » فعلت ما تشاء غير مكرهة ويتولى إقناعها
 من يشاء من بنيتها . وكان القول البليغ لازماً للسياسة كلزوم

السيف كلاهما أساس للسياسة . والبلاغة هبة من آلهة الشعر
« من تصطفى بنات «زيوس» من الملوك وترعى مولده تصب على
شفثيه طلاعدباً ، وتنساب الفصاحة من فيه حلوة كالشهد ،
ويتأمله الشعب وهو يقضى فى الحصومات بعدل لا يضل ،
وإذا خطب لا تزل فصاحته ، ويسكن بحكمته كل اختلاف
وإن جل » ولا تطيع المدينة سوى ما يعمليه القانون ، والقانون
عندهم لا يريد سوى العدل والجمال والخير . ذلك ما تبتغيه
القوانين فإن وجدته سن فى صيغة جامعة مانعة وتسرى على
الناس على سواء ولا تبديل لها . هذا ما نسميه قانوناً كما يقول
« ديموستين » وإنما تجب طاعة القانون ، لأن كل قانون هبة من
حقوق الله وهو شرع شرعه الحكماء من الرجال وهو عقد مشترك
بين أفراد المدينة وعليهم أن يلائموا بينه وبين حياتهم .

وكانت المدينة وآلهتها على سواء فى تنمية مواهب الفرد ، ولم
تقنع فى الأعياد العامة وما يأتى على المدينة من أحداث بأن
يكون الإنسان شيئاً من دون البطولة . ولم يبلغ الفرد آفاق الجمال
والبطولة وحيداً مرضاة لفرغات الغرور والأثرة ، ولم يفعل الأثنى
شيئاً قبل أن ترضى الآلهة ، وكانت أثينا هادياً وموثلاً لآماله
وقد أضاعت بحبها طموح النابيين « والوطن أحق بالتمجيد
والتقديس فى عقيدتهم من الآباء والأمهات وأكبر منزلة عند

الآلهة وعند ذوى الألباب من الناس . ويجب أن يقبل الفرد من الوطن ما يدعو إليه الوطن كالجندى الذى لا يرتد عن موقفه رغم القتال والجراح « وكان على كل فتى أثينى أن يقسم هذا القسم إذا دخل الجندية : « لن أضيع شرف ذلك السلاح المقدس ولن أتخلى عن رفيتى فى القتال . سأقاتل فى سبيل آلهتى ودارى وحيداً أو مع الآخرين . لن أدع الوطن قليلاً بل سأدعه أعز وأقوى مما أتيت . سأطيع الأمر الذى تمليه حكمة الحاكمين . سأخضع للقانون القائم ولما تسنه الأمة مجتمعة ، فإن هم أحد بتحطيم هذه القوانين أو بعضياتها فلن أطيعه بل سأقاتل فى سبيلها وحدى أو مع الجميع وسأحترم شعائر آبائى . »

واليونانى كائن سياسى كما يقول « أرسطو » ، وبهذه الفضيلة قدرت للمدينة ثروة من الرجال ، وتجمعت فى النابهين قيم ممتازة وهم فى حياتهم أمنع من الحصون ، وهم أسوة لخلفائهم تصيرهم مصائرهم إلى مجد المدينة ، لأن أرواح الأبطال فى عقيدتهم حراس وحفظة للمدينة . ولم يكن عجباً بعد ذلك أن تنزع هذه الأمة إلى آفاق لم يبصرها الإنسان فيما خلفهم من مدنيات . فالآلهة والمدينة كانوا يدعون الإنسان إلى سماء أسمى من الأرض والآلهة والمدينة . أوقدوا هذا القبس المقدس فى ضمير الإنسان فأبصر الإنسان أرجاء من المجد والخير والجمال .

لم يُنكب الإنسان بدياً بالجهل والتضييع والهوان ، ولم يعيش
الإنسان مكتوفاً مغطى على بصره فلا يرى له وطناً ولا يدرى
إلام يصير . واستغلت الأديان عليه كيما يطيب نفساً بالظلام .
لا يفهم الأثينيون هذا البطش الذي أورث الإنسان السقوط .
فمن يعذب يأثم ومن يخوف يكذب . ثم يأتي مفكر بعدئذ
فيتخذ هذه الظلمات برهاناً على ما ركب في غرائز الإنسان من
إثم ، فما كان الإنسان ملكاً فهوى ، وما كان عليه أن يكفر
عن سيئاته حياً وميتاً . لكن الإنسان إنسان وكفى ، لو أطلق
عقاله وحمل عن كاهله ما ورث من بغى السنين لارتد جميلاً
كما كان الأحرار النابغون في الزمان السعيد . فالمدنيات المتعاقبة
ألقت في يقين الإنسان أنه عدم أمام الأبدية وصيرته حقيراً أمام
الموت ، وأورثته احتقار الحياة القائمة ، وضحت به في سبيل
الدولة ، وبذلك خلقت فقير الهند كما يقول « تين » ، وخلقت
الموظف المصري والصيني وكاهن القرون الوسطى والرعية
المحكومة في الزمان الحديث . وتحت هذا البطش قضى على الإنسان
أن يكون ضئيلاً وأن يكون دورة في فلك هائل لا يعرف
كيف يسير . أما في بلاد الإغريق فقد سخرت النظم في سبيل
الإنسان ولم يسخر الإنسان في سبيل النظم . لم تجعل النظم
غاية وإنما اتخذت النظم أداة ينمو فيها الفرد نمواً كاملاً متناسقاً ،

بل كان ما هو أحق من ذلك فلم يشعر الفرد بطلاق بينه وبين الدولة، فسعادة الفرد رهينة بسعادة الدولة وسعادة الدولة لا تنفصم عن سعادة الفرد، وسعادة الفرد في رضى الآلهة، والآلهة تستمتع بجمال الإنسان ونبله، ولا أحب إلينا مما يقول الفيلسوف «رينان Renan»: «ظهرت في التاريخ معجزة وهي اليونان القديمة. نعم منذ خمسمائة عام تقريباً قبل المسيح تم في عمر الإنسان رسم طراز تام كامل من المدنية، فلما انبثق نوره دخل ما قبله في ليل التاريخ فقد وكّد العقل والحرية حقاً، وأشرق طلعة المواطن والفرد الحر في صفحة الحياة البشرية، وأخزى هذا الإنسان الحديد بنبله وكرامته البسيطة كل ما سبقه من عظمة الملوك وجاههم، وبنيت الأخلاق على العقل وتجردت من خرافات الأساطير وصارت حقيقة ثابتة خالدة، واطلع الإنسان أو كاد على حقيقة الطبيعة والآلهة، وتجرد الإنسان من فزع طفولته ومضى بقلب مطمئن إلى مصيره، وبنى العلم أى الحكمة الحقّة، ولاحت في أفق العلم للإنسان أحياناً قواعد الكون المادى وإن لم يستمسك بأهدافها يومئذ فإن مبدأها قد وجد. وإن «كوبرنيك» و«جاليليه» و«نيوتون» لم يفعلوا إلا أن يستخرجوا نتيجة أبحاثهم مما وجدته اليونان.

أما في الفن فيا إلهى! فأى ثمر أثمروا وأى عالم من الآلهات

والآلهة وأى انقلاب سماوى ! اليونان وجدت الجمال كما وجدت العقل ، وقد صنع الشرق تماثيل من قبلهم كما وجد بعض بلاد الشرق من قبلهم سبيلا لأن تغنيهم عن تدخل الآلهة فى كل شىء . ولكن الإغريق وحدهم اكتشفوا قوانين ثابتة للطبيعة ، واليونان وحدهم اكتشفوا سر الجمال والحق والنظام والمثل الأعلى ، وقضى على الإنسان من بعدهم أن يدخل فى مدرستهم ، وذلك ما فعلته روما من بعد وما فعلته النهضة وما سيفعله رجال النهضة المقبلة كلما تردت الإنسانية فى ظلمات الوحشية . فى هذه الساعة الحاسمة من تاريخ الإنسانية وجد سر الحياة « Zo Kahor » وهو الجمال ، وخاصة هذا المزيج العذب بين الجمال والخير « Zo Kahor Kayabor » يا إلهى ! ما أعجب هذا القول ! يومئذ استمد الإنسان النبيل من قلبه مبادئ النبل وصارت الحقيقة والخير والجمال قطب الرحى الذى تدور حوله حياتنا . وقد استأثر الإغريق بالإيمان بالمجد والثقة واليقين فى المستقبل . والمجد شىء من خلق الإغريق فحياة الفرد معدودة ولكن ذكاه خالدة وفى هذه الذكرى يحيا الإنسان حياته الحققة .

سقراط

(ولد سقراط سنة ٤٧٠ قبل المسيح ومات سنة ٣٩٩ -

قبل المسيح)

لم يكن سقراط كأحد من رجال أثينا ، في زمانه ، وكان الأقدار قد فارقت بينه وبين قومه قصداً وعمداً . لقد باهت أثينا يومئذ بجمال بنيتها ، وكان الجمال ديناً في المدينة ، تولت إليه أفئدة الأثينيين جسماً ومعنى ، وكان نبعاً للمصورين والمثاليين يظهر آياته فيما خلقوا من تماثيل وصور ، وكان غاية المفكرين الذين يردون الفضيلة إلى الجمال . وكان أساساً للخير وللحياة ... وتفرد الأثينيون بهذا الإدراك المرهف الذي يرد كل شيء إلى الجمال ، ولا يكاد « البربار » من غير الأثينيين يقدر هذه الظاهرة حق قدرها .

وكانت الحاسة المميزة للعبقرية اليونانية هي حاسة الجمال التي صيرتهم فنانيين يؤمنون بفنهم لحماً ودماً ، وأرهفت نفوسهم حتى تشابه ما أبدعوه في كل شيء ، فأشبه شعراؤهم فلاسفتهم وأشبه فلاسفتهم مصوريهم ، وما كان غذاء لقلب « فيدياس »

كان نفسه غداء لقلب « بيركليس » و « سوفوكل » و « سقراط »
 والنابعين من أبناء أثينا جميعاً ، ولا قبل لأحد بهذه الصور
 ما لم تقدر له حياة تقدر الجلال تقديساً . ونرى سقراط يسأل
 تلاميذه بعد غيبة عن المدينة عما عسى أن تكون قد أنجبت
 في الجلال والفلسفة كالذي يرويه أفلاطون . قال سقراط :
 « قدمت عشية أمس من معسكر « بوتيديا » فاشتقت بعد
 غياب طويل إلى أن أرد النواحي التي ألفت أن أغشاها .
 فقدمت ساحة « تاوراس » أمام معبد « بازيليوس » ولاقيت
 هنالك فئة كثيرة من أصحابي ورأيت فيهم فئة لم أكن أعرفها .
 فلما أبصروني قادماً حيوني من بعيد من كل مكان ، واستخف
 الفرح « شريفون » كعادته ففرق من بينهم حتى أمسك بيدي
 وقال : « ياسقراط ، كيف نجوت من القتال ؟ » وذلك لأن
 موقعة قد وقعت في « بوتيديا » قبل أن أبرح العسكر لم تعلم
 المدينة من أنبائها سوى أخبارها الأولى . فأجبتة : إن الأمر
 كما ترى . فقال : قد سمعنا أن موقعة رهيبة قد وقعت وأن كثيراً
 من أصدقائنا قد هلكوا . فقلت : إنك لم تسمع إلا صدقاً .
 فقال : وهل شهدت الموقعة ؟ فقلت : نعم شهدتها . فقال :
 اجلس وحدتنا ، فإننا لا نعرف الأمر كله عن بينة . ثم اجلسني
 بجانب « كريتياس » ابن « كلايسخرون » فحييت « كريتياس »

وسائر الحاضرين وحدثتهم عما شهدت في العسكر وأجبت كل
سائل سألني . فلما رويت ظمأهم من أنباء الحروب سألتهم عن
أنباء المدينة ، فقلت لهم : ما أمر الفلسفة وما أمر شبابنا ، فهل
نبغ نابغ في الفلسفة أو في الجمال أو فيهما معاً ؟ فنظر كريتياس
صوب الباب فرأى فتية قادمين يتصارعون وكان من ورأهم
زحام وجمع . ثم قال : يا سقراط أما عن الجمال فستشهد ذلك
بنفسك ، إن هؤلاء الفتية الذين ترى إنما يتنافسون على حب
من يعدونه أجمل أبناء أثينا اليوم ، وما أظنه ببعيد . فقلت : ومن
عسى أن يكون هذا الجميل ومن أبوه ؟ فقال : إنك تعرفه حق
المعرفة غير أنه لم يكن إلا طفلاً يوم سافرت ولا ريب أنك
تعرف « شارميدس » ابن عمي « جلوكون » . فقلت :
نعم وربى إنني أعرفه وقد رأيته غلاماً وما أحسبه اليوم إلا فتى
راشداً . فقال : سترى بنفسك كم نما ذلك الفتى . ولم يكده
يفرغ من حديثه حتى دخل شارميدس ، فقلت : إنني لست
بحكم في هذا الأمر ولست بميزان قويم في الجمال وإن الشباب
جميعاً جميل ، ولكن هذا الفتى قد أوتى جمالا بارعاً وإن رفاقه
يحبونه كما أرى
.....
ورأى الأطفال أنفسهم لا يصرفون أعينهم عنه حتى أصغرهم
سنا وهم جميعاً يتأملونه كأنه تمثال جميل

ثم قلت : بحق هيرقل إن هذا الفتى لا يبزه أحد لو زدناه خلة صغيرة . فقال « كريتياس » : وما هذه الخلة الصغيرة ؟ فقلت : لو أن له مع ذلك الجمال قلباً طيباً نبيلاً .

على حين يفتن قوم سقراط بالجمال في كل شيء كما رأينا تريد حكمة الأقدار ألا تجعل لسقراط حظاً من الجمال في الجسم ... فهو أشبه ببعض الأحياء المائية . كان أفطس الأنف مبطوح العينين مكور الرأس خشن الهيئة ، لا يبدل عباة في الشتاء ولا في الصيف ويمضي حافي القدمين ولا ينتعل إلا في الأعياد الدينية ، وكان من وراء هذه الهيئة روح مفردة في الجمال والعقل . والذين يتفكرون في حياة سقراط يرونه طبعاً لقوة نفسية خفية متجبرة لا يستطيع أن يعصيها مهما أمرته ، وكان قومه يشهدونه مغرباً في التفكير ممعناً في الانصراف عما حوله غارقاً في تأملاته فيسخر منه الجاهلون وكثير ما هم . لم يعرف جيل الشيوخ في زمانه وجه الحق من حياة هذا الغريب ، ولم يفجأ أولئك الآباء إلا ما يردد أطفالهم في بيوتهم عن قوة سقراط في الإقناع والعقل . وقد ذكر تلميذه « إكزينفون » أن « أنتيفون » أحد السوفسطائيين قال ذات يوم لسقراط : « إني أظنك ياسقراط عادلاً ، ولكني لا أظنك حكيماً وأحسبك تقرني على ذلك فإنك ، لا تكسب من تلاميذك مالا ومع ذلك

فإنك لا تتخلى عن عباةتك ولا عن بيتك ولا عن شيء مما
تملك دون مقابل ولا بثمان دون ثمنها ، فكيف بك لا تقدر
دروسك بمال وأنت تعرف قدرها؟ فأنت عادل لأنك لا يغيريك
الثراء ، ولست بحكيم لأنك لا تزن هذه الدروس بثمان . « فأجابه
سقراط : « اسمع يا « أنتيفون » إنا نعد حكيماً كل امرئ يكتسب
صداقة الذين يحبون الجمال والخير ، ونسمى سوفسطائيين أولئك
الذين يتجرون بالعلم فيبيعونه من شاء ، فأما من رأى إنساناً خيراً
فلقنه ما يعرف من خير فقد اكتسب صديقاً ، ومن يفعل ذلك
فقد فعل ما ينبغي أن يفعله الخيرون الطيبون ، أما أنا « يا أنتيفون »
فأحب أن أمتلك أصدقاء صالحين وأن أعلمهم ما أعلم من
خير وأن أرسلهم إلى من عسى أن يزودهم بالفضل ، ونحن
نقرأ جميعاً كنوز حكمة السابقين وأبين لهم ما انطوت عليه حكمة
الأقدمين من خير . فإن أصبنا خيراً وجدنا كسباً كبيراً بما يجني
بعضنا من بعض من نفع » .

* * *

وتجافى سقراط عن أن يرائى الناس مرضاة للناس ، واتبع
سقراط قلبه فلم يحفل بشيء من دون الحق ، وعاش غريباً على
الجاهلين الذين لم يستمعوا إلى حديثه . وزادهم عجباً أن اختار
سقراط لرسالته الشباب من دون الشيوخ ، ولقى الشباب من

سقراط ما فتنهم من وفاء وصدق ، وأصاب الظاهرين من
 شيوخ المدينة شرر من لومه فقد ضرج كبر يائهم ، بأنياب
 وأضراس ، وكانت مقاليد المدينة بين أيدي هؤلاء الشيوخ ، وقد
 غلبت عليهم المنافع الذاتية وغابت عنهم منفعة المدينة العامة
 التي لا تصلح إلا بما صلح به أولها وهو الفضيلة . ولم يعترف
 بفضل سقراط إلا الخيرون من فتية المدينة . ولا تشرق شمس
 حتى يستضيء بنورها قوم ويعشى بضوئها قوم ولا ريب أن
 كثيراً من الأثينيين قد استهزءوا بهذا الرجل الغريب الذي
 لا يبهر أبصارهم بجمال ولا بجاه ولا بكذب ، وإنما تجرد عن
 هذا جميعاً وجاءهم بوجه قبيح . وحسب هذا الرجل أن يتكلم
 حتى يكون أجمل الناس خلقاً . وقد أقرتلاميذه المقربون بهذا السحر
 الفاتن وتردد إعجابهم على آذان آبائهم وأمهاتهم . إنه شبيه
 بصور « السيلين » (١) .

« وإن سقراط لأشبه الناس بنماذج « السيلين » التي نرى في
 مصانع المثالين والذين يصورهم المثالون وفي أفواههم زممار ، فإذا

(١) أي بنماذج الشيوخ السكارى المنتفخة أوجههم من الخمر
 وتراهم ثملين وترى في أفواههم زمماراً وهم أنصاف آلهة ولدوا
 من « بان » إله الفن ومن إحدى الحور . وهم آباء « باخوس »
 إله الخمر وهم رمز الحكمة والوحي والنبوة .

فتح باطنها تكشفت عن تماثيل صغيرة للآلهة ، بل إن سقراط
أشبهه بصورة «مارسياس» ، أي بزامر الناي . ولست تنكر
يا سقراط أن بينك وبين هؤلاء شبيهاً في ظاهر خَلِيقك . ثم
انظر كيف تشبههم فيما وراء ذلك . إنك متهمك ساخر فهل
تنكر ذلك ؟ فإن لم تعترف فسأتى عليك بالشهداء . أتقول إنك
لا تعزف على ناي ؟ بلى وربى ! إنك أفتن نغماً من مارسياس ،
فقد كان مارسياس بحاجة إلى ناي ليسحر الناس بزمره وكذلك
يفعل الذين يعزفون على مزماره اليوم ، وهو الذى علم «أبولون»
العزف على الناي ، وألحان مارسياس إن عزفها عازف ماهر
أو عازفة ما ، ردت الإنسان شبيهاً بالآلهة وأدخلته فى أسرار
الجمال ، وذلك بأنها ألحان إلهية . أما أنت ياسقراط فالفرق
بينك وبين مارسياس أنك لا مزمار لك ولكنك أوتيت سحره
وفعلت فعله ببيانك الحميل . ونحن إذا سمعنا أخطب الخطباء
لا نتأثر به فى شيء أما أنت ياسقراط فإن سمعك سامع أو
روى كلامك راو مهما كان حظه من العلم اضطربت أفئدة
السامعين وأخذت عليهم كل مذهب . سواء كانوا رجالاً أو
نساء أو فتية .

ويعترف تلاميذ سقراط بسلطانه على نفوسهم وما يلقون حين
يسمعون إليه من سحر فاتن ، فقد كان يعيش بينهم كالأطفال

ويتخلق بينهم بخلق البسطاء ، وكانوا يصارعونه ، ويحتذبون شعره بأظافرهم . وكان كما يقول أحد تلاميذه : « إذا خالط الناس تشبه بالأطفال والبسطاء ، وإن جد كشف عما في قلبه . وما أدري أيصر الناس ما في قلبه من صور ولكنني أبصرها وأجدها نفحة من نفحات الله وأراها كترًا جميلاً ثميناً فاتناً ولا أستطيع أن أعصى له أمراً ... »

* * *

هيات إذن بين ظاهر الحياة في صورة سقراط وبين ما تخفي هذه الصورة من حكمة . ولا ريب أن هذا التقيض بين ظاهر الأمر وباطنه جعل سقراط فريسة لحكم المتعجلين من الأثينيين والذين يسرعون إلى الحكم عن ظاهر الأشياء أما تلاميذه فلا يستطيعون دفعاً لسلطانه على قلوبهم كما يعترف بذلك « السبياد » : « إنني إن سمعته ارتجف قلبي وجرى دمعي من آثار ما يقول وأرى كثيرين من دوني يفعلون ما أفعل . ولو أنني سمعت « بريكليس » أو سمعت خطيباً من الخطباء المشهورين فإنني أعترف بفصاحته ولكنني لا أجد في فصاحتهم ما أجد في كلام سقراط ولا يرتجف فؤادي من شيء ولا تثور نفسي على ما يقيدها من أسر ، ولكنني إذا سمعت سقراط - هذا المارسياس - آمنت أنني لا ينبغي

لى أن أعيش كما أعيش (ولست تنكر يا سقراط أنى أقول
حقاً وصدقاً) وما أحسبني إن أصغيت إليه الآن بقادر على أن
أدفع سحره وسلطانه عن نفسى وألا أجد منه ما وجدته من
قبل . سيكرهنى على أن أقربينى وبين نفسى أنى ناقص فى
كثير من الأمر وأنى أغفل نفسى وأدبر أمور الأثينيين . وأنا
أسد أذنى مكرهاً كالذين يمرون بجزر « السيرين » وأولى منه
فراراً خشية أن أصحبه فلا أبرحه حتى أبلغ شيخوختى .

* * *

ولم ينبج سقراط زماناً طويلاً من رأى قاصر ظالم فقد رآه
الأثينيون يمشى فى الأسواق فقيراً حافياً يجادل من يلاقى على
السبيل ويفحم مجادليه بالحق ، ويزيدهم خبالاً أن هذا
الإنسان الذى يقر بالجهل قد أنزل العلماء من صياصبيهم ومرغ
كبرياءهم فى التراب وعسرى عن غرورهم وجهلهم . وكانوا
ينقضون عليه كما يقول « ديوجين لاپيرت » وكلما ضيق الخناق
على مجادليه ضربوه واجتذبوا شعره واحتقروه ولكنه كان يصبر
على أذاهم واحتقارهم وكان يهجرهم هجراً جميلاً . ولو أن أحداً
منهم رفسه عفا عنه وقال : « أولو رفسنى حمارٌ رفسته » وازداد
الجاهلون ضلالاً بما رأوا من امرأة سقراط فقد كانت تثور
على رجلها ثم ترغى وتزبد وترميه بالماء . وكان يتقبل أذاها

عفواً رضىاً ثم يقول : « أولم أقل لكم إن « كزنتيب » سترعد
 ثم تمطر » وكانت تتبعه في الأسواق فتضربه وتشق عباةته عن
 ظهره فيثور له الناس ويودون لويضربها ، ولكن سقراط كان
 يمضى هادئاً ويحدثهم أن الفارس يجب الفرس الحرون حتى إذا
 عرف أن يعبد ثورته هان عليه كل فرس بعده ، وكذلك أمرى .
 لقد أوتيت امرأة عنيفة جامحة فإذا صبرت عليها واحتملت
 أذاها هان على ما قد ألقى من الناس جميعاً .

* * *

واحتمل سقراط في سبيل رسالته أذى أشد من سخرية
 العامة ، فقد عده « أريستوفان » سوفسطائياً مفسداً لعقول
 الناشئين مبدداً لدين الأقدمين صارفاً لآمالهم عن سياسة المدينة .
 وكلا الرجلين كان يرمى إلى إصلاح واحد وهو الإبقاء على فضيلة
 الأقدمين ، غير أن الوسيلة مختلفة لأن الكوميديا القديمة كانت
 تحارب البدع المستحدثة في نفوس الأحياء والناشئين بالهجاء .
 إنما يهجو أريستوفان رذيلة الأثينيين ورذيلة الحاكمين منهم
 خاصة ، ويزيد أريستوفان أن يستمسك قومه بالمذاهب الأولى
 التي خلفت البطولة في آباء الأثينيين ، ويريد أن يرد للتعليم القديم
 سلطانه ، وهو الذي أثمر ثمره يوم كرمت العدالة والحكمة في
 أفئدة الناس « وكان لا يحل لطفل أن يهمس بصوته وكان

الصبية طيعين مخشوشنين منذ الصبا ، وكان صبية كل حي
 يبكرون في صفوف منتظمة متراصة إلى معلم الموسيقى ثم
 يحفظون ما يعلمون من أناشيد . وكانوا حراساً على أن يحافظوا
 على ما ورثوا عن آبائهم من نغم ومن يخرج منهم عن النغم
 الموروث هزوا أو لعباً انهالوا عليه ضرباً حتى لا تضعي آلهات
 الفن . وكانوا يذهبون بعد هذا إلى معلم الرياضة منصرفين
 بألبابهم إلى الرياضة كاملين لا يعبثون بأصواتهم ولا ينبذون
 قصداً بأجسامهم . وعلى هذه القيم شب أبطال ماراتون . «
 ويريد أريستوفان أن يتعلم الناس الفضيلة » اتخذني أيها الشاب
 رفيقاً عن يقين فإن فعلت فستجاني عن « الأجورا » وتكره
 أن تغشي الحمامات العامة وتستحي من العار وتثور إن سخر
 منك ساخر وتقوم من مقعدك إن أقبل عليك الشيوخ . ولا
 تنهر والديك ولا تجيء أمراً نكراً يشوه ما يزينك من حياء ، ولا
 ترمي بنفسك في أحضان راقصة ، ولا ترد على أبويك قولاً .
 وستقضي في ساحات اللعب زمانك وضاءاً مزهراً بدلاً من هذه
 الرثرة الجوفاء التي لا تغني شيئاً عن أبناء هذا الزمان ، وبدلاً
 من أن تدخل فيما لا يعينك من الجدل والإسفاف ، بل تعدو
 إلى الأكاديمية تحت ظلال الزيتون المقدس متوجاً بتاج من
 غصن لطيف أنت ورفيق عاقل من سنك ، وتتنسم خلياً عبق

الزهور وورق الكافور الأبيض حين يتساقط وتستمتع بالربيع
حينما يحف شجر « الپلاتان » بـ « الپانيليا » كأنما يفضيان بعضهما
لبعض بسر : فإن فعلت ما أوصيك به وتفكرت فيه بقلبك
فسيكون صدرك مليئاً أبداً ويكون لونك وضاعاً أبداً . »

* * *

فالقصد مجتمع بين أريستوفان وسقراط ، ومع ذلك يصور
أريستوفان سقراط صورة البدعة المستحدثة والضلالة المتلفة
لمجد الأولين ، فهو في رواية « السُحب » صاحب مدرسة
تصرف التلاميذ صرفاً عن سنة الأقدمين ، وهم شاحبون معتلون
قابعون يتفكرون في حل ما لا يغني عن الأمر ، ومن يقرع باب
باب المدرسة يقطع على التلاميذ تيار أفكارهم . وقد سأل سقراط
« شريفون » عن هذه المسألة : « كم قدماً من أقدام البرغوث نفسه
يستطيع برغوث أن يثب ؟ » لأن برغوثاً أكل شريفون من حاجبه
ثم وثب إلى رأس سقراط . ويذهب أريستوفان إلى أن سقراط
قاس هذه المسافة قياساً عجيباً ، فقد أذاب شمعاً ثم جاء
بالبرغوث فغمس قدميه في الشمع حتى إذا برد الشمع على
قدمي البرغوث فصار كأن بقدميه نعلا فارسية ، أخذ هذه النعال
فقاس بها المسافة ومسائل أخرى من أشباه هذه السخريات . .
ولا يكاد يكشف الستار عن مدرسة سقراط حتى يرى سقراط

جالساً في سلة معلقة في الهواء لأن الأرض تجذب إليها كل شيء حتى الأفكار - كما يتهم أريستوفان - ولا يستطيع سقراط أن يرقى إلى الأفكار السماوية حتى ينزل عن الأرض ، ثم إن سقراط يعبد السحاب من دون آلهة المدينة ، وسقراط سفسطائي يمشى في الطرقات صلفاً وينظر بجانب عينيه ويمشى حافي القدمين . وهو محاور لا يجارى ويقلب الباطل حقاً ويقضي بهذه السفسطة على سائر القيم الموروثة في نفوس تلاميذه . وتلاميذه يوم يخرجون من مدرسته أهل لأن يضربوا آباءهم ثم يقنعوهم أنهم على حق فيما يفعلون .

* * *

ومهما ضحك بعض الأثينيين من مذهب سقراط وسخروا من حياته فلا يعبأ سقراط في شيء بهؤلاء الساخرين ، فقد عرف الأثينيون أيامه بالتعجل في الرأي وصار الشعب في هجاء أريستوفان نفسه كالشيخ الذي ارتد طفلاً لا ينفع لديه إلا المتملقون الكاذبون . ولكن سقراط عارض السيل واستمسك بالحق وحده وأعرض عن إرضاء العامة بتعليمه وبمذهبه في الحياة . وإذا اختلف قوله عن غايات الأكثرين صمد لهم صابراً ، ذلك بأنه كان يحب الحكمة وهم يحبون أهواء العامة ، والحكمة لا تتلون بهوى العامة وإنما هي صادقة مؤمنة بالحق . والخلاف

بين الذين يحبون أن يرضوا أهواء العامة وبين سقراط . إن
 هؤلاء متقلبون مذذبون وسقراط ثابت لا يتحول ، وقد عجب
 أحد محاوريه من مذهبه الذي جاوز طاقة البشر فقال له سقراط :
 إننى وإياك لعلى خلاف فيما نحب ، فإننى واله بالفلسفة وأنت واله
 بأهواء العامة من الأثينيين وقد شهدتك غير مرة لا تعصى لمحبوبك
 قولاً رغم ما أوتيت من مقدرة ، بل أراك متردداً ذات اليمين
 وذات اليسار وأراك لا تقيم على رأيك فى المجمع السياسية إذا
 عارضك عامة الأثينيين ، ونراك تتحول فتقول ما شاءت لهم
 أهواؤهم ولا تستطيع أن تخالف « ليلى » وقولها . ولو أن أحداً
 عجب لما تقول مرضاة للعامة لأجبهته — إن أحييت الصدق —
 أنك لن تقلع عن تضاربك حتى تقلع « ليلاك » عن أهواؤها
 المتضاربة . فاعلم أننى من جانبي لن أسمعك غير هذا القول
 ولا تعجب أن ترانى أقول ما أقول ولكن قل للفلسفة « ليلاي »
 أن تقلع عما تأمرنى به . إنها تقول أيها الصاحب العزيز كل
 ما سمعتنى أقول وهى لا تتذبذب فيما تقول ، وهى التى تقول ما
 أدهشك مما حضرت الآن وما عليك إلا أن تكذبها فيما ذهبت
 إليه وهو أن الظلم أكبر الشرور جميعاً ، والذين لا يكفرون عما
 اقترفوا من إثم أولئك لهم عذاب وبيل . فإن لم تغير قولها فبحق
 الكلب إله المصريين ما أنت بمنسجم مع نفسك ولكنك تعيش

حياتك في خلاف مع نفسك ، أما أنا يا عزيزي فقد أوتر أن
أحمل قيثاراً مضطرب الأوتار مختلف الأنغام أو أن أكون على
رأس « كوراس » فلا أستطيع أن أسيره ، وأوتر أن أكون في جانب
والناس أكثرهم في جانت لا نتفق ولا نألف على أن أعيش
في خلاف مع نفسي وحدها وأن أقول غير ما أقتنع .

سقراط والتعليم الأثيني

كان اليونان في سياستهم يعدون التعليم أساس مجد المدينة ، وهم هنالك يُعدون الفرد لتحقيق مآرب الدولة ، لأن مجد الدولة معقود بنفوس أفرادها ، ولا يحمل الأفراد نفوساً كباراً ما لم يجدوا سبيلا إلى صور المجد والإيمان بجمال الفعال . بل ذهبوا إلى أن لكل حكومة نظاماً خاصة في التعليم : فالديمقراطية تعلم الأفراد على سواء ، والارستقراطية تعلم من تعدهم لحكومة الدولة تعليماً خاصاً من دون العامة . وعلى المشرع أن ينظر إلى أية غاية تسير أمته ، وأن يلائم بين هذه الغاية وغاية التعليم . فقوانين « ليكيرج » ليست سوى دعائم لتعليم « اسبارطة » التي لم يكن لها مآرب سوى المجد العسكري . فنظمت حياة الأفراد مذ كانوا أجنة في بطون الأمهات ، وتعهدت الزواج كما تنشئ للمدينة نسلاً قويا . فإذا بلغ الطفل سبع سنين احتضنته الدولة ليعيش عيشة عسكرية ، ولا تدع الفرد لأبويه وللمقادير تختار له ما تشاء من سبل الحياة . فالفرد للدولة والدولة تعلم الفرد ليحقق السياسة التي رمت إليها آمالها . ووجدت حكمة

الأثينيين كيف تهىء للأفراد السعادة في التعليم دون أن يعوقها ذلك عن إدراك غايتها من المجد . التعليم الأثيني لا إكراه ولا عنق فيه . وإنما ينمو الفرد فينمو فيه عقله وحسه وجماله وقوته وهو يغنى ويلعب . ولم يغن ويلعب هباء من غير قصد إنما وضعت عند رنين الشعر ونشيد الأوتار ووضعت عند الصراع والسباق غاية الفرد والمدينة معاً : وهي عظمة الفرد والمدينة جميعاً . وفي سبيل هذا القصد سن « سولون » قانوناً يفرض على الآباء أن يعلموا أطفالهم الموسيقى والألعاب الرياضية . وقد نحسب أنهم رموا بهذا القانون إلى هدفين مستقلين يريدون أن تنمي الرياضة الأجسام وأن تهذب الموسيقى الغرائز والأرواح . ولكن أفلاطون يرى أن الرياضة والموسيقى قد فرضتا كلتاهما لغرض واحد وهو تهذيب الروح ، لأن الانصراف إلى الرياضة البدنية وحدها ينتهي إلى قوة جامدة عتية فيمسي الإنسان غشياً قد سدت عليه منافذ الإدراك الجميل . وحاسة الجمال إذا أهملت عميت كما يقولون . وأما من ينصرف إلى الموسيقى وحدها ويمعن في طلبها دون أن تنمو عافيته وبأسه فسينقلب مرهف الحس هزيباً وتناهى عنه رجولته . وكلا الأمرين ضار بالمدينة لأن كيان المدينة معقود بخلال أفرادها : فإن كانوا لا يستطيعون شيئاً وراء البأس والشدة والبطش فستنتهي القوة الغاشمة

العشواء إلى أن يرتطم بعضها في بعض وإلى أن تقضى أمور
 المدينة بالعنف والحرب . وإن كان أفرادها شعراء مغنين فلاسفة
 ليس بهم بأس فلا تغنى الموسيقى عنهم من السيادة شيئاً .
 ورأى المشرع الأثيني أن يجمع في فرد واحد بين الشجاعة
 والجمال وأن يجعل الأثيني جندياً قويا وسياسياً حكماً معاً .
 وهذا المزيج من القوة والحكمة إذا توفر لأمة ثم استطاعت أن
 توقد في نفوس أبنائها جذوة حبها ، فقد ضمنت هذه الأمة أن
 تجد الجندى المستأسد الحامى إذا عدت عليها العوادي وضمنت
 أن تجد السياسى الرشيد الحارس الأمين . وقد أتيح لأثينا أن
 تنجب هؤلاء الرجال ... والمجد غذاء الفنون ... وهذا اللعب
 جد غايته المجد ... وهذه الموسيقى جد غايتها المجد . فالأثيني حين
 يلعب يبصر عند أقصى جهده صوراً محبوبة من المجد ، فهناك
 تنتظره صورة الرجل الحميل وصورة الجندى المنتصر وصورة
 البطولة فى الأوامب ، وهذه الصور أنزلها الأثينيون منازل من
 التكريم والتمجيد صرفت إليها قلوب الناشئين . والآلهة تحب
 اللعب كما يقول « بندار » ، وكانت بلاد الإغريق تنصب
 التماثيل لأبطال الأوامب ويخلد الشعراء ذكرهم .

* * *

وما أمر الموسيقى فى تعليمهم ؟ كانت غايتها أن تنمى فى

نفوسهم حاسة الجمال وتحبب إليهم القيم الإنسانية العالية .
 والمشرعون والمصلحون كانوا أحرص الناس على أن يسمع الطفل
 الموسيقى التي تتعهد الكرامة الإنسانية . ويريد أفلاطون نغمتين
 اثنتين : نغمة تعز الكريم إذا نزلت به الأيام وتمنعه من الهوان ،
 ونغمة ترد عنه الصلف والكبرياء إذا أقبلت عليه الأيام . وهو
 ينفي بعد ذلك من جمهوريته موسيقى الحمر والشهوات وموسيقى
 التوجع والأنين وكل ما قد يورث النفس السقوط ، وليس عجباً
 بعد ذلك أن يحطم حاكم من « اسبارطة » قيثارة زيدت أوتارها
 خشية أن تغل بنغماتها أيمان الاسبارطيين في الحرب ، وليس
 عجباً بعدئذ أن يقول « دامون » معلم « بيريكليس » إن كل
 تغيير في الموسيقى تغيير في قوانين المدينة لأن القوانين لا تستقر حتى
 تستقر مبادئ المدينة وهذه المبادئ تتأثر بما يتعلم أفراد المدينة
 في الخير وفي الشر . ومن أجل هذا يريد أفلاطون ألا يبنى
 في مدينته فنان لا يصور الجمال والخير حتى لا يتعدى أثره إلى
 نفوس الذين تصير إليهم سياسة الدولة ، لأن القبح يسرى
 بقدر ضئيل إلى نفوس الناس من حيث لا يشعرون ثم يستفحل
 مرة واحدة ، كالذي يرعى كلاً وخيماً قد لا يشعر بما في كل
 قضة من أثر السم حتى إذا تجمع أثره أتى عليه مرة واحدة .
 وأما صور الجمال والخير فهي أشبه بالنسيم إذا مر ببلد طيب

حمل في أعطافه الصحة . . والنفس على ما شبت عليه فإن أنست
 القبح أتت القبح وهي لا تدرى ، وإن أنست الجمال أتت الخير
 من حيث لا تدرى .

* * *

كانت الموسيقى أدباً أريد لغاية سياسية وهي خلق من
 تبنى عليهم سعادة المدينة ، وقد نعجب أن يولى الأثينيون التعليم
 أكبر ملكاتهم وأن ييسروه فيكون أحلى من اللعب وأن يردوا
 إليه ما يمسهم من حسنات وما يصيبهم من سيئات . فالمرشح
 عندهم معلم والحاكم عندهم معلم والحكيم عندهم معلم وهم
 جميعاً يرمون إلى خلق الفرد السياسي القوى الحكيم . وهذه
 العقول عرفت أن تجعل التعليم نشيداً يثير الحفي من قوة النفس
 ويبعث المطوى من صور الفضيلة وأن يسمو بالإنسان إلى أسمى
 ما في الإنسان من معان . وكانت موسيقاهم بسيطة : « الناي »
 و « القيثارة » . وكانت هذه الموسيقى تصحب الطفل وهو
 يلعب وتصحب الصبي وهو ينشد الشعراء وتصحب الشاب
 وهو يصارع ويسابق في ساحات الرياضة .

وبذلك اجتمع الشعر والموسيقى في تعلم الأثينيين ، ولم
 يمجّد الشعراء في تاريخ المدنيات مثلما مجدوا في أثينا ، لأن
 الشاعر فيهم ناصح يهدى إلى الرشد ، وهو مهبط الحكمة الإلهية

وهو الذي كشف الغطاء عن بصيرة الإنسان ، ومحا عنه حجب الجهل وعلمه الفنون وحبب إليه المجد... ولا ريب أن الشاعر قد حمل أمانة التعليم في أثينا كما يريد لها الأثينيون وهو أن يصير قومه أحسن حالا . ولم يجد الصبي أثراً للمجد أحب مما أنشده في شعر الخالدين ، ولا يغني الصبية شعر الشعراء ابتغاء معرفة يحفظونها وكفى ، وإنما كان من وراء هذا الشعر قصد سياسي وهو أن تبنى أفئدة الناشئين على صور من الفعال والمجد ، لأن ما يحفظ الصبي من أثر جميل قد يصحبه فيما يلقى من الزمان وكم صحب الشعراء والحكماء نفوساً إذا خفي الرأي وكانوا كبارقة الرشاد ، وكم عصم الشعراء قادة من الهزم وكم عصم الشعر نفوساً من الضيم . وقد أبقى شعراء اليونان آثاراً تحبب العدالة والحكمة ، وخلدوا صور البطولة والمجد ، وفي سبيل هذه القيم العالية سن الأثينيون قانوناً يفرض الشعر في التعليم . وكانوا يعرفون هذا الجميل للشعر فجمع سولون شعر « هومير » في كتاب - وكان سولون نفسه شاعراً ومشرعاً معاً - وعرف الشعراء غايتهم في المدينة ، ويقول « أريستوفان » على لسان الشاعر « إشيل » : « إن على الشعراء أن يلقوا ستاراً على كل سوء فلا يذكرونه على المسارح ولا يذكرونه على حال ، فكما يعلم المعلم الأطفال يعلم الشعراء الناشئين . ومن أجل هذا

لا ينبغي لنا أن نقول شيئا من دون الخير». وبهذه العقلية نفهم ما يقصه «بلوتارك» عن «السيياد» إذ دخل صبيا على معلم فسأله عن كتاب هومير فلم يجد هذا الكتاب لدى المعلم فصفعه وانصرف! وبهذه العقلية نفهم ما يذهب إليه أفلاطون في جمهوريته: فهو يريد أن تراقب الدولة الشعراء فلا تبيح لشاعر أن يصور بطلا يبكي وينتحب كما تفعل الضعيفات من النساء؛ لأن المدينة بحاجة إلى رجال حكماء أغنياء بنفوسهم أقوىاء بحكمتهم يلقون نوازل الأيام ثم لا ينخزلون كما ينخزل العبيد والنساء، ولا يبيح للشاعر أن يصور الخوف من الموت، لأن المدينة بحاجة إلى رجال أقوىاء يؤثرون الموت على الضيم ولا يبيح لشاعر أن يتغنى بكؤوس الذهب والفضة ومتمعة البطون واللذات، لأن المدينة بحاجة إلى رجال يؤثرون القيم الإنسانية العالية على الغنى ويؤثرون المجد على اللذات والهوى. والشعر والموسيقى قد سما بهما الأثينيون إلى منزلة لازمة لسياسة الدولة وسعادتها، وهي أن توقد في أفئدة الأثينيين حب الجمال والشجاعة والحكمة وسائر القيم الإنسانية الحميلة وتنهى إليهم حكمة الآلهة وآمال الصالحين. وقد تراهم بلغوا هذه الغاية مرحين فرحين في أحضان الطبيعة لم يلقوا الإكراه في شيء وإنما وجدوا الحب في كل شيء. فالزهر المتفتح تحت قطرات الندى وبهجة

الشمس والنبع الساسبيل وصفاء السماء ووارف الظل لم تحرم
من حضانتها الطفل الأثيني .
في أحضان الطبيعة التي استمتع بها الإغريق في كل شيء
نمت أبدان أبطالهم طلقاء سعداء ، وفي أحضان آلهات الشعر
والموسيقى نمت أفئدة الإغريق وآمالهم وقدرهم أن تشغف قلوبهم
بعد هذا بما خلق عظمة أبطالهم وأن يشغفوا بما يهيء للإنسان
أن تكبره المدينة ، وأن يجد السبيل إلى المجد . والنتيجة المحتومة
التي تفرضها طبيعة الأشياء أن يسير الأثينيون على السبيل التي
سار عليها آباؤهم يريدون أن يعلموا سر عظمة الإنسان وأن
يتجاوزوا هذه الصور الخالدة التي رسمها الشعراء في نفوسهم
ووعتها صدورهم إلى كشف الغطاء عن هذه العظمة ، وكان
الشعراء قد أضاءوا أفئدة الناس بالجمال وكان ضياؤهم مبصراً لا
يكاد يُلبى على معنى إلا أضاءه ويمكن للأثينيين أن يجدوا
بأنفسهم أسرار الأشياء . وكان العلم حينئذ أن يجد المرء بما أوتى
من نور معاني الأشياء ، وكانت سعادتهم أن يروا بنور
عقلهم ما حملت عقولهم من صور القيم الإنسانية . العلم هو
الفلسفة والفلسفة هي معرفة الفرد نفسه بنفسه ومعرفة سر مجد
الإنسان . فتوليد المعاني الذي عرف به سقراط ونبوءة الآلهة
التي تعظ الأثيني أن يعرف نفسه بنفسه ليست إلا تطورا طبيعيا

للتعليم الأثيني . ولم يفهم الأثيني التعليم على أنه حقيقة واقعة
 يلقيها معلم لتعلم كالممثل الذي يحفظ دوره ويلقيه على المتفرجين
 وكفى . ولكن العلم أن يستنير العقل ويهتدى العقل بنوره إلى
 ضمير الأشياء وليس في المعرفة ثمرة أشهى من الثمرة التي يجتنيها
 العقل بنفسه ، وهذه الثمرات أوقدت أفئدة الأثينيين شغفاً
 بالمعرفة ، والمعرفة من أجل ما خلق الله من شيء كما يقول أفلاطون .
 وهذه المعرفة ستنحو فيهم نحواً أثينياً أي إلى حب الحكمة .
 والحكمة في عقلهم جامعة للقيم الإنسانية التي تقوم عليها عظمة
 المدينة وعظمة الفرد السياسي .

منهج سقراط

ولم يفعل سقراط شيئاً إلا طاعة لضمير المدينة ، وكان دعاء
أثينا حياً في ضمير سقراط فلم تطب له الحياة من دون هذا
الواجب . وقد عصفت به هذه العاصفة من حب المدينة كأنها
شيطان يصرفه كما يشاء ، فانطلق في الأسواق يصور للناس
ما ورثوا من صور الحكمة والعدالة والشجاعة والفتوة وتقوى الله ،
وانطلق في الأسواق يستخرج ما في مبادئ السفسطائيين من
كذب وانطلق في الأسواق يسخر من الذين يسوسون المدينة على
مذهب السفسطائيين . وكان ضمير الأثينيين حينئذ يستقيظ في
نفوس الصالحين بزجر كالذي يقوله « يوربيد » إنه من العار
أن نسكت وندع الكلام للبربار . وكانت هذه الدعوة إلى
مبادئ الخير والجمال قد أخذت على نفس سقراط كل سبيل
فلم يستطع أن يدعها ويتبع سبيل من خلا من العلماء الذين قضوا
أعمارهم في كشف أسرار الطبيعة والأفلاك . وذهب تلميذه
« اكرزيفون » إلى أن سقراط لم يقنع بأن ينصرف عن العلوم
الطبيعية ولكنه رمى علماءها بالجهال ؛ لأن من المجانين طائفة تخاف

مما لا يثير الخوف ، وطائفة لا تخاف مما يخيف ، ومنهم فئة لا تستحي أن تقول وتفعل ما تشاء ، وفئة تعتزل الناس ولا تخالطهم ، وفئة لا تقدر المعابد والصلوات ، وفئة تعبد الأشجار والأحجار وما تلقى على السبيل من أنعام . وكذلك يفعل الذين ينصرفون إلى دراسة العلوم الطبيعية ، فمنهم فئة ترى الكون واحداً ، وفئة تراه أكواناً ، وفئة ترى الأشياء جامدة ساكنة ، وأخرى تجدها في حركة دائمة ، وفريق يذهب إلى أن الأشياء تولد وتنفى ، وفريق يرى أنها لا تولد ولا تنفى .

ولولا أن ألفت أثينا إلى أبنائها الصالحين أملا كان أدنى إلى ضمائرهم من كل شيء لحسبنا سقراط ظالماً للعلوم الطبيعية ، فإن هذه العلوم قد فازت من الزمان بنتائج لو رآها اليوم سقراط لمحا عن حياته هذا القول ، ولكن حياة المدينة وسلامة المدينة صرفتا جهود سقراط إلى البحث عن فضيلة الإنسان وغاية هذا البحث هي سعادة الفرد وسعادة المدينة .

وكانت فلسفة سقراط مزيجاً من الرياضة العقلية والموسيقى العقلية فلم يأت فتية أثينا بشيء لم يرثوه . كانوا قد ورثوا من الشعراء والزمان صوراً من القيم الإنسانية النبيلة وخليت في خلايا أرواحهم ساكنة مطوية قد يثيرها الزمان إذا مسها الزمان . فجاء سقراط بعقل مثل يد المثال البارع وجمع في نفوس مناظريه

وسامعيه ما تشئت فيها من معاني الجمال وجعل يقيم هذه المعاني في ضمائرهم شيئا فشيئا بدوق المثال وصبر الفنان . وليس عجيبا إذن أن يحفظ الأقدمون عن تلميذه أفلاطون هذه الكلمة : « لو خلقت الحكمة فتاة لهام بحبها الناس جميعا » .

واتبع سقراط في التعليم منهجا كمنهج الأثينيين في الرياضة البدنية كأن يناظر صاحبه كأنما يصارعه في حوار يتبع المنطق الدقيق ولا يحيد عنه ، ويفرغ من نتيجة إلى نتيجة ، كالمصارع القدير الذي ينتهي من نقطة إلى نقطة ويأخذ بتلايب من يحاوره ويزج به من جهل إلى جهل وخاصة إن كان من الذين كسبوا بين الناس سمعة جوفاء ، وخاصة من كان منهم سفسطائيا أو تلميذ سفسطائي ، فلن ينجو من يد سقراط قبل أن يتصبب عرقه وقبل أن تسقط كبرياؤه ويراه السامعون جاهلا مغرورا لا يدرك جهله . ولم يدع سقراط العلم في شيء مثلما ادعى الآخرون ، وكان بعد ذلك يصارع الشبان في ساحة الرياضة صراعاً بدنيا ويتخذهم أصدقاء . فإذا حاورهم في ما أراد أن يعلموا من القيم الجميلة قاد الحوار بدقة ونصب لهم الفخاخ في المنطق ، ولم يكن بهؤلاء الفتية الناشئين من الغرور ما كان للمشهورين من رجال العلم والسياسة ، وكانوا إذا غلبوا في حواره انقضوا عليه يعضونه ويجذبون شعره ويضربونه . ولم نبلي أيام سقراط أن نجد العلم

الذى لا وطن له ، وإنما للعلم وطن يفرض على العلماء أن يولوا آمالهم
شطره وأن يجعلوا له ثمرات عقولهم ، بل ألفت أثينا على بنيتها أن
ينفقوا فى سبيلها كل شئ ، وكانوا أشد غيرة على مجد وطنهم منهم
على مجد الآباء والأمهات ، وأنفقوا جهودهم فى سبيل المدينة ،
وانظر كيف يؤدى سقراط بعض هذه الأمانة :

سقراط : ماذا دبرت لنفسك ؟ أتريد أن تبقى كما أنت أم
تريد أن تصرف عنايتك لشيء تبتغيه ؟

السيبياد : هذه مسألة أشاورك فيها يا سقراط . ولقد تدبرت
ما قلت ووجدت فيه مقنعاً . إن رجالنا السياسيين
جاهلون إلا قليلاً .

سقراط : وما معنى ذلك ؟

السيبياد : لو أنهم كانوا عالمين لكان لزاماً على من ينازلهم أن
يلقاهم بزداد من العلم وأن يعد لمصارعتهم ما استطاع
من عدة . ولكنهم يأتون السياسة جاهلين ولا أرى
ضرورة لزداد العلم وعنايته ، وأنا أعلم منهم وقد آتتني
الطبيعة ما لم تؤتيم من الفضل .

سقراط : يا إلهي ! ماذا تقول يا عزيزي ؟ ، إنه لا يليق بك
ولا بخلالك هذا القول .

السيبياد : ماذا حدث يا سقراط وعلام تلومنى ؟

سقراط : إننى أخزى لك ولحبي .

السيبياد : ولماذا ؟

سقراط : لأنك ترى أن عليك أن تنازل رجالاً من بيننا .

السيبياد : فمن على إذن أن أنازل ؟

سقراط : وهل هذا سؤال جدير برجل يؤمن بنبله و كبريائه ؟

السيبياد : ماذا تقول ؟ أو ليس لى أن أنازل هؤلاء ؟

سقراط : أرايت لو أنك توليت قيادة سفينة قادمة على قتال

فهل تقنع بأن تكون أقدر بحارتها و كفى ، أم عليك

أن تنظر إلى أبعد من ذلك وأن ترمى بنظرك إلى

أعدائك الحق الذين ينبغى أن تبزهم ؟ أما أن

تتفوق على أنصارك فهو أمر لازم لعله واحدة وهو

أن يطعيوك ولا يهملوا بعصيانك ، وهم إن آنسوا منك

تفوقاً أطاعوك فى قتال أعدائك كلما أقبلت على أمر

جميل جدير بك وبالمدينة .

السيبياد : هذا هو رأي

سقراط : وهل يجدر بك أن تقنع بأن تكون خير جنديك

دون أن تضع أمام عينيك قادة أعدائك ودون أن

تطمع فى أن تبزهم فأولئك هم غاية جهديك وأشغالك ؟

السيبياد : ومن تريد بهؤلاء الأعداء يا سقراط ؟

سقراط : أأست تعلم أن مدينتنا فى حرب لا تنقطع مع
الإسبرطيين ومع ملك الفرس ؟

السيبياد : هذا حق .

سقراط : فإن كنت قد أأقيت فى أمملك أن تسير أمور
مدينتنا يوما ما فاعلم علم اليقين أن عليك أن تنازل
ملوك الإسبرطيين وملوك الفرس .

السيبياد : إنى أراك تقول الحق .

سقراط : ولا ينبغى لك يا صديق أن تقيس همتك وأملك

بهمة « ميديا » مربي الديوك ومن شابههه من الذين
يقبلون على سياسة المدينة وما تزال بهم مسحة من
العبودية كما يقول النساء ، فهم لم يهذبوا ولم يخلصوا
من ضعة أصولهم وما تزال بهم عجمة البربار وقد
جاءوا يتملقون المدينة ولا يسوسونها ، ولا ينبغى لك
أن تجعل قبلتك هؤلاء الذين ذكرت دون أن تعنى
بنفسك ودون أن تعلم ما يجب أن تعلم .

السيبياد : إنه يبدو لى يا سقراط أنك على حق فيما تقول لكنى

أعتقد أن قادة اسبارطة وملوك الفرس لا يختلفون
شيئا عن الآخرين .

سقراط : لكن تدبر ما تقول يا عزيزى .

السيبياد : فيم أتدبر ؟
 سقراط : أأست تعلم أن المصارع يتأهب لمصارعة الخصم
 الشديد المخوف أهبة قوية ويعنى بنفسه عناية فوق
 عنايته لو أن عليه أن يصارع خصماً ضعيفاً
 هزيبلاً ؟

السيبياد : لا شك أنه يأخذ للخصم الخطير أهبة أعلى وأكبر .

سقراط : وما ضرك لو عنيت بنفسك عناية كبرى .

السيبياد : ليس فى هذا ضرر ولكن فيه الخير كل الخير .

سقراط : ولكن رأيك يضار فاسد إذا تأملت ظاهر الأشياء .

إن من نعاذى من الملوك ليسوا أدنى أصولاً منا .

وإذا اجتمع النبل الأصيل والتهذيب أتى ذلك بثمر

جميل فاحذر أن تكون دون هؤلاء نسباً وحسباً

وتعلماً فإن ملوك الإسبارطيين لا يختلط نسبهم بدم

ليس من دم الملوك من أهل هيراقليدس . وأما

ملوك الفرس فإنهم أشد غيرة على أصولهم وأنسابهم ،

ولا يخامر الشك أحداً أن الملك جاء من دم الملوك ،

ويوم يولد من قد يؤول إليه الحكم يجعلون ذلك

اليوم عيداً فى بلاد الفرس وفى آسيا جميعاً . أما نحن

يا لسيبياد فنولد ولا يكاد يشعر بنا الجيران كما

يقول الشاعر الهزلي . ثم يلتقي الطفل بين يدي مربية
ما هيئة القدر . وإنما يربي ملوك الفرس خير من
في المملكة من خصيان وعليهم أن يعنوا بالمولود في
كل شيء ليجعلوه أجمل ما يكون ويعدلوا أعضائه
ويقوموها ، وهم من أجل ذلك في منزلة عالية من
الاحترام ، فإذا بلغ الطفل سبع سنين تعلم
الفروسية والصيد ، فإذا بلغ أربعة عشر عاماً
تعلمه من يسمونهم معلمى الملوك ، وهم أربعة
يختارونهم من أفضل شيوخ الفرس ، فيختارون أعلم
الناس وأحكم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس .
فأما أعلم الفرس فيعلمه دين « زرادشت » أى
يعلمه تقوى الآلهة ويعلمه أصول الحكم ، وأما
أعدل الفرس فيعلمه أن يقول الصدق ، وأما أحكم
الفرس فيعلمه أن يحكم شهواته أولاً ولا يكون عبداً
لهواه ، وأما أشجع الفرس فيعلمه ألا يخاف مطلقاً
ولا يخشى شيئاً ألبتة ، ويعلمه أن الخوف يورث الذل .
أما أنت فقد ألقاك بيريكليس بين يدي معلم
عجوز من العبيد ، وأستطيع أن أقص عليك
حديثاً آخر من آداب منافسيك وتربيتهم لولا

أنه حديث يطول . وأما مولدك وتعليمك أنت ومن
شئت من الأثنيين فلا يحفل بهما أحد إلا أن
يشاء الله فيقدر لك حبيبا يعصمك . وأما إن أحببت
أن تولى بصرك إلى الثراء والجاه والترف والثياب
والعطور والرياحين والخدم والتبع وسائر ألوان رفاهية
الفرس فستستحي حين تعلم أنك لست من كل
هذا على شيء ، وأما إن أحببت أن تتأمل حكمة
الإسبارطين واعتدالهم وكبرياءهم وسداد أيديهم
وشجاعتهم واحتمالهم للأعباء وشغفهم بالجهد والصبر
والمجد فسترى نفسك طفلا في جميع هذه الخلال ،
فإن استمسكت بالمال وبداء لك أنك على شيء في
هذا الأمر فلا تنقم علينا ، إن علمت أنك لست
من هذا على شيء ، فإنك إن أحببت أن تبصر
ثراء إسبارطة فستعلم أن ثراءهم قد جاوز ثروتنا
كثيراً : فليس فينا رجل يملك أرضا تنافس أرضهم
التي يمتلكون في بلادهم وفي مسينا سعة وخصبا ،
وليس فينا من يضاهيهم فيما يملكون من عبيد وخيل
وأنعام . ولندع هذه الثروة جانبا فأما الذهب
والفضة فليس في بلاد الإغريق جميعا ما يملكه رجل

بمفرده في اسبارطة ، وترى الذهب والفضة يهاجران
منذ أجيال عديدة من جميع بلاد الإغريق والبربار
إلى اسبارطة ولا يبرح الذهب والفضة أرضهم أبداً .
فترى المال يقدم على اسبارطة ولا يبرح أرضها ،
ومن أجل ذلك نرى أغنياء اسبارطة أغني من
الإغريق في الذهب والفضة ونرى ملكهم أغناهم
جميعاً ، لأن الملوك يفوزون من هذه الأموال بنصيب
وفير وتجنى لهم ضرائب كثيرة من أموال الاسبارطيين
أنفسهم وثناء الإسبارطيين كبير إذا قورن بثناء
الإغريق وثناء الإغريق لا يكاد يكون شيئاً
مذكوراً بجانب ثناء الفرس وثناء ملوكهم ، فقد
حدثني رجل أهل بالثقة من الذين زاروا مملكة
الفرس أنه سار يوماً كاملاً تقريباً في أرض خصبة
جيدة واسعة ، وهذه الأرض يسميها سكانها
« حزام الملكة » ، وقال إن هناك أرضاً أخرى
تدعى « برقع الملكة » وإن هناك فوق ذلك مناطق
أخرى كبيرة جيدة خصبة وقفت على زينة الملكة
وسميت كل أرض باسم جزء من أجزاء زينتها .
فهب أن أجداً من الناس خبرت امرأة كسرى وأم

الملك أن السبياد بن دينوماخيس يريد أن يحارب
 ابنها وخبرها أن دينوماخيس امرأة من أثينا لا تملك
 إلا خمسين « مينا » من الزينة وأن ابنها لا يملك
 إلا أرضاً لا تبلغ مساحتها إلا ثلاثمائة « بسرى »
 فستعجب كيف يتجاسر السبياد على أن ينوى
 محاربة كسرى ، وأظنها لا تجد لك سبيلاً إلا بالدرس
 والعلم وهما وحدهما السبيلان الجديران بالذكر في
 بلاد الإغريق . فإن علمت أن السبياد شرع في
 هذا الأمر ولما يبلغ العشرين عاماً وهو جاهل جهلاً
 تاماً ويعصى محبه حين ينصحه أن يتزود بزاد من
 العلم والدرس والمران ، ويرى نفسه أهلاً للنزال كما
 هو من دون حاجة لمزيد . ولا شك أنها ستعجب
 وتتساءل ماذا رمى هذا الفتى بهذه الجسارة ، فإن
 علمت أنك لا تعتمد إلا على جمالك وطول قامتك
 ومنبتك وثرائك وذكائك الذي فطرت عليه فسترمينا
 بالحبال والحنون يا السبياد ، لأنها ترى لديها كثيراً
 من هذه الميزات جميعاً . وكذلك تفعل ملكة
 اسبارطة إذا رأتك تقدم على أمر لا تأخذ له أهبتة .
 أولاً يخزيك أن ترى نساء أعدائنا عاملات بما ينبغي

لنا أن نأخذ به أنفسنا في بلدنا وأنا لا نعلم ما ينبغي
 لأنفسنا من العلم والمعرفة؟ فأطعني يا صديقي وأطع
 ما كتب في « دلف » اعرف نفسك بنفسك .
 واعلم علم اليقين أن من ذكرت لك من الملوك هم
 منافسوك ، ولا تحسب من ذكرت لي من قومنا
 منافسين ، ولن تفوت هؤلاء الملوك إلا بالدرس والعلم
 والفض فإن ضيعتها فلن يكون لك ذكر عند اليونان
 ولا عند البربار ولا ريب أن حبك للشهرة يفوق
 كل حب .

* * *

ونعلم بعد ذلك أن العلم والفنون كانا عدة أثينا على أعدائها ،
 وأن غاية التعليم كانت حاجة لازمة لقوة المدينة وسعادتها . وكانت
 آمال الفلاسفة أن يتعهدوا الخير والجمال في أفئدة الطامحين وأن
 يهيئوا للمدينة رجالا أقوياء ، وكانت الغاية التي نحت إليها أثينا
 في علمها هي إدراك الجمال ، وكان الجمال سر ما آمن به
 الأثينيون من معاني الخلود فقد آمنوا أن الخلود معقود بالمجد ،
 والمجد معقود بما أبدع الإنسان من أثر . والآثار الجالدة لا تولد
 في عقيدتهم إلا في الجمال ، فالإنسان قد يخلد بعقبه من بنيه
 الذين يبقون ذكره من بعده وعقبه من فعالة التي تحييها على

الزمان . وأولو الفعّال والمجد خالدون أبداً في أفئدة الرجال كما يقول « نوسيديد » . وإذا قدر للناس أن تسمو بهم أشغالهم إلى آفاق الجمال فلا راد لهم عن الخير « ستعلم علم اليقين صدق ما نباتك به يا سقراط إذا ألقيت بصرك على شغف الرجال بالمجد ، وستعجب من شططهم إذا لم تتدبر قولي ، وسترى الناس يركبون العجب من الأهوال والمكاره في سبيل ما يبقى ذكرهم من بعدهم ويعقبهم مجدا لا يفنيه الزمان ، وهل ترى إليهم إذ ينفقون في سبيل هذا الحب ما لا ينفقون في سبيل أبناءهم ، وإذا يركبون الصعاب جميعا وإذا ينفقون أموالهم ويحتملون العناء ويفقدون المجد بأرواحهم . » وقد هدت الأثنيين سجية الجمال أن يعلموا أن العقول الخالفة لا تؤتي ثمرها إلا في عالم من الجمال ؛ لأن العقول تلد الفكرة والحكمة وسائر القيم الإنسانية النبيلة ؛ والشعراء والمبدعون من الخالقين في الفن آباء لما أنجبت عقولهم . وأسمى ما خلقت الأذهان من شيء هو ما نسميه « الحكم الرشيد » « والعدالة » . والخالدون الخالقون لا ينسلون ما حملت عقولهم إلا في الجمال ، فإذا اقترب الإنتاج ترى أفئدتهم تهوى إلى الجمال ويشتهونه عن شمال ويمين ، حتى إذا قدر لهم أن يلقوا نفساً ذكية نبيلة استهوتهم ضعفين ، وهاجت الحفي من الفكر ، وأثارت المطوى من القول ، واسترسلت ألسنتهم بذكر النبل والقيم الإنسانية

السامية وما ينبغي أن يتحلى به الرجل الشريف ، وانقلب الإنسان
يومئذ مؤدباً ومهذباً : بين يدي الجمال ينجب المنجبون آثارهم
وبين يدي الجمال يتعهد المنجبون ما خلقوا . وبين الجمال وبين
المنجبين قرابة ومودة لأنهم شركاء في خلق أثر جميل لا يفنى .
وهذه الآثار الحميلة أشد قرباً إلى الناس من أبنائهم . ومن يبصر
آثار هوميرو وهزيود وسائر الشعراء المحسنين يحسدهم على ما خلقوا
من آثار أبقت ذكركم في الخالدين . وإن أحببت فانظر ما أنجب
« ليكورج » للاسبارطين . ألم يعقب نظاما حافظا للاسبارطين
ولليونان جميعا ؟ ألسم تمجدون بينكم « سولون » بما شرع لكم من
شرع . وترى الناس ينصبون الصلوات والمعابد لما خلد الخالدون
من آيات العقول ولن يخلد اليوناني إلا أن يبدع في الجمال أثراً
لا يفنى . ويسر لذوى الأقدار أن يبدعوا آيات من المجد جميلة
مثل آيات الفنون ، وآمنوا بعدئذ بنخلود الذين يعملون الصالحات .
وكان اليونانيون يبتغون الجمال لغاية سياسية ، وحرصوا على أن
ينهض الناشئون فلا تنمى أفئدتهم . إلا بغذاء صادق من معاني
الإنسانية الكاملة كما تنزع هذه الأفئدة إلى الجمال وحده ،
ورأيانهم يسرون المرء إلى الجمال منذ الصبا ويحببون إليه كل جميل
في الحس وفي المعنى . ومن يجد سبيلا إلى أن يصهر أفئدة الناس
بالجمال فقد قضى أن تكون الكرامة إيماناً بين الناس ، وقضى

ألا تكون للناس شيم من دون الكمال والنبيل . وعرف الأثينيون
 الأمد الذي تنتهى إليه صورة الجمال المطلق « من هدى الناشئين
 رقيقاً إلى آفاق الحب ، وبصرهم آيات الجمال الواحدة تلو الأخرى ،
 واتبع طريقاً قويماً رأى عند محط الرحال جمالا ما أعجب خلقه .
 وفى سبيل ذلك الجمال المطلق هان ما يلقي الإنسان من بلاء لأنه
 جمال أبدي لا يزول ، لا مولد ولا نهاية له ، ولا يأتيه زيادة ولا
 نقص ، وما هو بجميل فى موضع وقبيح فى موضع ، ولا هو جميل
 عند قوم وقبيح عند الآخرين ، ولا يجسم ذلك الجمال بوجه ولا
 بيد ولا بهيئة ولا هو كائن فى شئ سواه كالأرض والهواء ، ولكنه
 كائن بنفسه وفى نفسه وهو نبع تستمد منه صور الجمال الأخرى .
 والفرق بينه وبين آيات الجمال الأخرى أنها تخلق وتموت أما الجمال
 المطلق فلا يأتيه النقص والزيادة فى شئ ولا يمسه الفناء فى شئ » .
 ولم يقنع الأثينيون بأن يحرصوا على آيات الجمال فيما أبدعت
 عقولهم وفنونهم ، فالفضيلة لا تكون فضيلة حتى يأتيها المرء طائعا
 لداعى الجمال ، ومن أجل ذلك اقترنت فضيلتهم بالجمال فى كل
 شئ وسميت الفضيلة بالجمال والخير معا و كان ذلك غاية تعليمهم
 وتعليم سقراط كما رأينا .

سقراط والسفسطائيون

« قال أحد محدثي سقراط إنني حينما أصغى إلى رجل يجادل في القيم الإنسانية الممتازة أو في الحكمة بوجه عام وكان المتحدث رجلاً حقاً أراني فوق ما يتصوره العقل من المتاع والطرب؛ لأنني أشهد وثاماً وانسجاماً بين القول وقائله . وهذا الرجل عندي هو الموسيقي الحق الذي أبدع أجمل الألحان، ولم يبدعه في قيثارة ولا في آلة من آلات اللعب وإنما أبدعه في مذهبه الحق في الحياة ...

وأبدو حين أسمعه صديقاً للكلام وأتقبل منه ما يقول ، أما من يفعل ذلك غير فإنه يشق على وكلما بدا محسناً للقول كان أشد إيلا ما لنفسى وأبدو لمن يراني كأنني عدو للكلام . وذلك بأن تجار الكلام « أي السفسطائيين » كانوا عند أولى البصائر من الأثينيين أسوأ معلم قد قدموا على أثينا يعلمون ما يريد الأثينيون أن يتعلموه ، وسلكوا في ذلك طريقاً غير التي رسمها الأثينيون الأولون لأبنائهم ؛ لأن المشرعين والمصلحين والشعراء والحكماء من أثينا سنوا سنتهم في التعليم لتخلق القيم الحقة التي تركز عليها

سيادة المدينة ، وأمست حاجة الناشئين لمعرفة هذه القيم عطشاً شديداً . وأوقد الشعراء هذا التعطش للمجد فأقبل السفسطائيون يبيعون في الأثينيين علم الكلام وكان قولهم خلافاً جميلاً يصور الحق باطلاً والباطل حقاً . ، وعلموا ظاهر القيم العالية دون أن يكونوا مثلاً جديراً بما يقولون ، ولم يكن لهم سبيل سوى الربح من تجارة الكلام .

ورأى الشيوخ الأثينيون الذين ورثوا في دماهم وعقولهم حكمة الأقدمين ما قد يجره علم السفسطائيين من فساد في إيمان أبناءهم بالمجد رغم النجاح البارق الزائف وسنرى كيف يقف سقراط للسفسطائيين بالمرصاد كالكلب الأمين الذي يرد عن حظيرته ، وقف لهم عدواً ظاهراً وباطناً لأنه يريد أثينيين مؤمنين بالقيم التالدة والمجد كما آمن بها أبطال « ماراتون » ويريد أمة تؤمن حقاً ولا تؤمن ظاهراً ، وسنرى أن رسالته لم تكن شيئاً غير أن يلج بنور العقل في نفوس الأثينيين إلى ما في نفوس الأثينيين من معاني القيم الإنسانية العالية ، وكانت غايته كما رأينا أن يهيئ لأثينا رجالاً صالحين وانظر بعض حديثه :

سقراط : هذا الضيف الغريب « يا انيتوس » حدثني منذ حين أنه يشتهي أن يتعلم الحكمة وأن يتعلم هذه الفضيلة التي تقدر للناس أن يحسنوا سياسة ديارهم

وأوطانهم وأن يرفعوا ذكرى آبائهم وأن يعلموا كيف
يلقون ويودعون قومهم وضيوفهم كما ينبغي أن
يفعل كل رجل شريف . فانظر أى معلم ترى أن
نرسل إليه هذا الغريب ليأخذ عنه هذه الفضيلة .
أولاً ترى أننا ينبغي أن نرسله للذين يدعون تعليم
الفضيلة ويبيعون علمهم بضاعة لمن أراد أن يتعلمها
لقاء أجر معلوم ؟

انيتوس : ومن هؤلاء الذين تعنى يا سقراط ؟

سقراط : إنك أنت تعرف هؤلاء الذين يسمونهم السفسطائيين .

انيتوس : تجنب هذا الفأل بحق هيراقليس يا سقراط وادع

الله أن لا يمس الخبال أحداً من عشيرتى وأهلى
وأصدقائى ، المواطنين منهم والغرباء ، فيلقى به
بين أيدي هؤلاء المفسدين فإنهم وباء وفساد لمن
يجاورهم .

سقراط : ماذا تقول يا انيتوس ؟ وهل خالف السفسطائيون

سائر الذين يدعون إصلاح ما يسألهم الناس

إصلاحه فلا يصلحون ما يلقى إليهم كما يفعل

غيرهم وإنما يردونه أشد فساداً من ذى قبل وهم بعد

هذا يسألون أجراً على هذا الفساد . إني لا أكاد

٥٥
أصدق ما تقول . إلى أعرف رجلاً واحداً منهم
« بروتاجوراس » جمع وحده من هذه المعرفة ثروة
لم يجمعها « فيدياس » الذي أبدع أجمل التماثيل ،
بل لم يجمعها فيدياس وعشرة مثالين معه ! إنك
تحدثنا عجباً يا انيتوس ! رأيت لو أن إسكافياً
يصلح النعال البالية وراتقا يرقع الثياب القديمة ردا
النعال والثياب أفسد حالاً مما أخذها كانت
عاقبتهما أن يهلكا جوعاً ، ولا يستطيعان أن يخفيا
فعلهما على الناس ثلاثين يوماً ، على حين يخفى
« بروتاجوراس » على كافة الإغريق أنه يرد
تلاميذه أسوأ مما أخذهم ويخفى ذلك على الناس
أربعين عاماً .

ولم يكن هؤلاء السفسطائيون أثينيين ولكنهم وجدوا في أثينا
مغانم كثيرة ؛ لأن الشباب الأثيني الذي يشهد بلاغة الخطباء
في « الاجورا » وما تهيء الخطابة للخطباء من مجد ومنازل في
المدينة تاق إلى هذا المجد وبهرته فصاحة هؤلاء المعلمين . وقد
نرى فلاحاً أثينياً قدم بابنه يسعى إلى المدينة لأنه لم يستطع أن
يكبح جماح ابنه بعد ما سمع من رفاقه ما أصابوا من علم ومتاع في
سماع الفسطائيين وأكره أباه على أن يقدم به إلى المدينة ليدرك من

العلم ما أدرك الآخرون. وقد صور أفلاطون صورة جميلة لظماً فتيّة
أثينا إلى المعرفة ، ونجاح السفسطائيين في المدينة ، وهذه الصورة
تحفي إشفاق الأثينيين على أبنائهم ومدّينهم من هؤلاء المعلمين .
قال سقراط : قدم على داري « هبقرات » عند الفجر الأول
وقرع علينا الباب بعصاه قرعاً شديداً حتى فتح له الباب ،
فانطلق من فوره إلى داخل الدار ونادى بصوت عال : ياسقراط
أنت راقد أم صاح ؟ فعرفت صوته وقلت له : ما بك يا هبقرات
أجئتني بنياً سيئاً ؟ قال : لا ولكن جئتك بنياً سعيداً . فقلت :
وما أقدمك علينا في هذه الساعة من الليل ؟ فقال : جاء
بروتاجوراس أثينا . فقلت إنه قدم منذ يومين . وهل عرفت ذلك
الآن ؟ فقال بحق الآلهة إنني لم أعرف ذلك قبل عشاء الأمس ،
ثم تحسس طريقه في الظلام إلى سريري الصغير وجلس عند
قدمي وقال : إنني لم أكد أفرغ من العشاء حتى دخل عليّ أخي
ونبأني أن بروتاجوراس بالمدينة . وقد هممت بأن آتي إليك لولا
الليل ، ولما أكد أطرح عن نفسي تعب النهار حتى هببت من
من رقادي إليك . فقلت : وما عليك من هذا ؟ وهل تشكو من
بروتاجوراس شيئاً ؟ فقال : لا ولكنه استأثر وحده بالعلم لا يريد
أن يعلمني إياه . فقلت : بحق « زيوس » آتاه مالا وأقنعه يرددك
علماً . فقال : لو لم يكن غير ما تقول فلن أبخل بمالي ومال

أصدقائي عليه وإنما جئتك لتخاطبه في أمرى فما زلت صبيبا
ولم أره قط و كنت طفلا حينما قدم المدينة أول مرة وأرى
الناس جميعا يشنون عليه ويرونه أعلم الناس بالكلام... وما يمنعك
أن تدركه قبل أن يبرح الدار فهو ضيف « كالليوس » ؟
فقلت : لا يا صديقي لم ينجل غبش الصبح من بعد فدعنا نروح
ونغدوا في ساحة الدار حتى ينجلى الصبح وما أحسبه يبرح الدار
مبكرا .. وانطلقا يتحدثان وسط الدار يريد سقراط أن يمتحن
ما قدم عليه صاحبه . فلو أن رجلا أخذ العلم عن طبيبٍ لكان
طيبيا أو عن مثال لكان مثالا فما تريد أن تكون بما تعلم عن
بروتاجوراس ؟ فاحمر هبقراط خجلا وبدت حمرة على ضوء
الصبح الذى أخذ ينبج . وقال : أكون سفسطائيا . فقال سقراط :
ألا ينجزيك أن يعلمك الناس سفسطائيا ؟ وما يعلم السفسطائي ؟
فقال : يعلم صناعة الكلام . فقلت : لو أنك سألت موسيقيا أن
يعلمك صناعة الكلام لعلمك صناعة الكلام فيما يعلم أى فى
الموسيقى . فعمّ يعلمك السفسطائي الكلام ؟ فلم يجر هبقراط
جواباً .

والسفسطائي ليس إلا تاجرا فى رأى سقراط يروج تجارته
ويتنقل بها فى البلاد ، وهذه التجارة خطيرة لأنها غذاء الروح
والروح سعيدة أو شقية مريضة أو صحيحة بما تحمل من معرفة .

ولا ينبغي لرجل أن يقبل على معلم لا يعرف ما يعلم ولا يدري
 أيكون سعيداً بهذا العلم أم يكون به شقيماً . ثم يريد بعد ذلك أن
 يؤتية ماله ومال أصدقائه . ثم قدم سقراط وصاحبه على دار
 « كالليوس » فظنهما البواب من السفستائيين و كان قد ضاق
 ذرعاً بأفواجهم . قال سقراط : فلما قرعنا الباب صاح من وراء
 الباب : « سفستائيون أيضاً ! ليس لدى سيدي فراغ من الوقت »
 وأوصد الباب بيديه . ورغم كره سقراط ومن شابهه من الأثينيين
 لهؤلاء المعلمين فقد فاز السفستائيون بطائفة من أبناء أثينا الأغنياء
 ونراهم أحاطوا ببروتاجوراس ذات اليمين وذات الشمال ومن ورأهم
 آخرون تبعوا المعلم قد أغراهم بسحر صوته . ونرى بروتاجوراس
 يتحدث غادياً ورائحاً حتى إذا هم أن يدور انفرج التابعون شقين
 عن يمين وعن شمال كي لا يعترضوه فإذا مر التأموا وتبعوه يسمعون .
 إنا نريد أن نتخذ من بعض هذه الصور برهاناً على أن التعليم
 الأثيني قد شغف الأثينيين حباً بالمعرفة ، وقد كسب السفستائيون
 من أثر هذا الحب مالا كثيراً وكان علمهم ضاراً بالمدينة التي أسست
 على قيم أبنائها وما خملوا من فضائل . وقد خلق السفستائيون
 السياسي الذي يؤثر منفعته الخاصة على الصالح العام ، والسياسي
 الذي لا يتخذ من الفضائل السياسية إلا ظاهراً يلبسه ليزين
 للمدينة ما يريد . وإيهم خلقوا خطابة لا تقوم على الفضيلة .

سقراط وخطابة السفسطائيين

وكانت الخطابة سيدة الأمر في الجمهوريات القديمة : فقد كان كل شيء في أيدي الشعب و كان الشعب في أيدي الخطباء كما يقول « فينيلون » . ولم يكن هؤلاء الفتية من أبناء أثينا بد من أن يأخذوا بأسباب هذا الفن ليلبغوا ما ربههم في المجد وفي سياسة المدينة . وإنما يبلغ الخطيب فيهم قيادة المدينة ويحمي بالخطابة نفسه وأصدقائه من بغى الظالمين وتكون له الصدارة في كل شيء . وكانت منابر الخطابة قائمة في المجمع السياسية وإذا نودي في الاثنين إلى أمر جامع جاءوا مجامعهم ومد من حولهم جبل أحمرا لا يحل لأجنبي أن يتعداه ، واستخاروا الآلهة فيما يريدون ، ثم ابتهلوا فجعلوا لعنة الله على من يشير عليهم بإثم ، ثم يقف مناديهم فينادى أكبر الحاضرين سناً ليدلى برأيه ثم يتعاقب ذوو الأعمار ليحمل الرأي حكمة الزمان وخبرة الشيوخ وليجنب الرأي غائلة الأهواء ، ثم يأتي بعد هؤلاء من شاء من الحاضرين . وهذه السنة عصمت أثينا من هوى الرأي أيام كان خطباؤها حكماء صالحين وأثمرت في الخطابة آيات بينات ... وما كانت أثينا لتتقع

من خطابها بشيء من دون البلاغة التامة الحميلة الرشيدة وقد
ألفت أكمل الشعر وأجمل الصور وأدركت ضمير الجمال في كل
شيء . وقد رأيناها في أيام سقراط تنقض اليوم ما أبرمت بالأمس ،
ورماها من أحبها من بنينا بالتردد في الرأي ، ولكن أثينا لم تستطع
أن تدفع سحر هؤلاء الخطباء الذين أقنعوها بالأمس برأى وحملوها
بالغداة على رأى ، وصارت الخطابة قوة للخير في أيدي الخيرين
وصارت أداة دمار في أيدي المفسدين . وقد حرص المصلحون في
أثينا وروما بأن لا يلتقى سلاح الخطابة لغير الخيرين ، وقد حفظ
التاريخ عن « كاتون » الكبير في روما تعريفا يعرف به الخطيب
وهو أن الخطيب هو الرجل الشريف الذي يحسن الكلام «
(Bonus vir peritus dicendi) ، ومعنى ذلك أن الجانب
الخلقي في الخطيب كان أكبر أثراً في أنفس هؤلاء
المصلحين من جانب الفصاحة ، فإن غلبت على الخطيب
الفصاحة وانهارت في نفسه الفضيلة كان شراً مستطيراً على أمته .
وقد صور ذلك الأثر شاعر قديم في روما ، فقد سئل شخص في
روايته : كيف ضيعتم هذا الملك الكبير ؟ فأجاب : لأن الله ابتلانا
بخطباء جاهلين وغافلين . وإذا لم تعصم الخطيب حكمة وفضيلة
تهاون بالحق وجعل منفعته الخاصة فوق منفعة بلاده ونصب نفسه
حرباً على معارضيه وانصرف أبناء الأمة عن الرأى المسير للخير

إلى تطاحن على منافع الدنيا ، وحينئذ لا تجد من فصاحة
الخطيب بصيرة الربان الحريص على مصلحة السفينة ولا تسمع
إلا رجالاتهم ويتهمون ، وتهيج الخطابة أحقادهم وتشتت
الأحقاد ألبابهم وتعميهم آلام الحصام عن سبل الخير وتتردى
سفينتهم في صخر مهلك وهم لا يشعرون .

* * *

وقد شهد سقراط في « الأجورا » سياسيين يقولون بأفواههم
ما ليس في قلوبهم ، ويتشبهون بعد ذلك بالصالحين ويخدعون
الأمة بالأمانى ويكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع . ورأى
سقراط وبال أمرهم على المدينة وقد نراه يكره هذه الخطابة
السياسية كرها وينفر منها نفورا ولا يتشبه بها في حديثه الخاص
والعام ويريد أن يعصم من آثارها الأثينيين ، فقد هاله ما رأى
من شغف الأثينيين بالخطابة رغم ضلالتها وأقبل على
الأثينيين أجانب يعلمونهم كيف ينصرون الرأي ونقيضه ،
ويعلمونهم أن الحق ليس إلا فكرة نسبية عند كل فرد ،
ويعلمونهم « النجاح » في حياتهم الخاصة والعامة من كل سبيل .
وكان أعلى هؤلاء المعلمين كعباً « بروتاجوراس » و « جورجياس »
و « هيبياس » وكانوا يفتنون على أثينا في سفارات سياسية ،
فيأتيهم أفواج من أبناء أثينا ليأخذوا عنهم فنونهم ولا يعفيهم سقراط

من سخريته بين آيات الإكبار التي يشملهم بها فتیان الأثنين
 ولا يدعهم حتى يقوض أقدارهم في نفوس السامعين ويعرّي
 عن عجز هؤلاء المعلمين عن تعليم الفضيلة وينكر على بعضهم
 كل قدر لهذا الفن الذي يعتز به ويتكبر به على سائر الناس .
 فإن جورجياس يباهى في أثينا بفن الخطابة الذي يفوق كل فن
 ويقدر لصاحبه المجد والسعادة ... وقد يباهى علم الصحة بأن
 يوفر للناس سعادة الصحة وعلم الرياضة البدنية بأن يوفر للناس
 القوة والجمال . ولكن الخطيب يستطيع أن يسير هؤلاء جميعاً إلى
 ما يريد . ولم يفجأ جورجياس هو وسائر الأثنين إلا أن يسمعوا
 سقراط يجهر بأن الخطابة ليست فناً من الفنون وهي أشبه شيء
 بصناعة الطبخ التي لا تعد للناس سوى ما تشتهي بطونهم ، ومن
 شاء أن يعد صناعة الطبخ فناً حل له أن يعد الخطابة فناً ؛
 لأن الخطابة التي لا تقوم على الحكمة والفضيلة لا تبلغ إقناع
 السامعين حتى تتملقهم بما تشتهي أنفسهم . فهي صناعة للتملق
 والزلفى وليست فناً للحق والصدق .

ويتجاوز سقراط بعد هذا الحد إدراك العامة من الناس ويسمو
 إلى جانبه الإنساني الرفيع الذي يحفزه الصدق وحده والحق وحده ،
 فإن عامة الناس إن ظلموا أخفوا على الناس ظلمهم وجاءوا القضاء
 بمحاميين يضللون القضاة ويخفون عليهم معالم الحق ويحملون

القضاة بفصاحتهم على أن يأخذوا جانب الكذب ويبرئوا الظالمين من طائلة العقاب . فإن نجوا بظلمهم فرحوا بظلمهم وقدروا الخطابة قدرا عاليا وآتوا الخطيب ثمنا بالغاً من جبهم وأموالهم . هذا ما يفعله عامة الناس الذين يؤثرون العافية على الصدق ولا يخافون أن يقيموا على ظلم . أما من أوتى قلباً ذكياً مؤمناً كسقراط فلا يؤثر شيئاً على الصدق ولا يحفل بالخطابة إلا فيما تكشف عن جانب الصدق في نفسه ، فإن اقترب إثمًا سارع فأقر بإثمه لدى القضاء كما يكفر عن سيئاته ، واستحب العقاب الذي يطهر به نفسه على النجاة بالكذب ، وذلك عنده هو أجر الخطابة وحده . ولسنا نجهل أن سقراط كان في ذلك وحيداً مفرداً وأن ذلك كان مذهبه الإنساني الذي تفرد به على الناس . و كان يعلم أن أكثر الأثنيين قد لا يعتنقون هذا الإيمان فاحتفظ به لحياته ولمن عسى أن يؤمن به من الصالحين . وأما إشفاقه على قومه من غواية الخطابة فقد دفعه بيده ولسانه وآية ذلك ما يقصه تلميذه إكزنوفون .

جاء « جلوكون » بن أريستون يريد أن ينحطب في الشعب كما تكون له الصدارة يوماً في المدينة ، و كان يومئذ فتى لم يبلغ العشرين من عمره ، ولم يستطع أحد من أصدقائه ولا من ذويه أن يسكنه والناس يجتذبونه من منبر الخطابة ساخرين ضاحكين ، واستطاع سقراط وحده أن يسكنه رحمة به ورعاية لصداقة

« شرميدس » بن « جلوكون » ورعاية لأفلاطون أيضا . فلقية ذات يوم فقال له : « يا جلوكون » أتريد أن تكون لك الصدارة فينا ؟ قال جلو كون : نعم يا سقراط إن ذلك ما أشتهى . فقال سقراط : إي وربى ! إن هذا الأمل أجمل ما سمت إليه نفوس الرجال فإن حققته فستحظى بما تريد وتنفع أصدقاءك وتبنى دار أبنيك وتوسع آفاق وطنك ثم ترفع ذكرك في أثينا وفي سائر بلاد الإغريق وقد تبلغ قدر « تمستوكل » فيمتد ذكرك حتى بلاد البربار وحيثما صرت ترمقك الأبصار . فلما سمع جلوكون هذا الحديث انتفخت أوداجه وطاب نفسا بالوقوف ، فقال له سقراط : لا ريب يا جلوكون أنك إن أحببت أن يمجدك الوطن فلا بد لك من أن تنفعه . فقال جلو كون : لا ريب في ذلك . فقال سقراط بحق الآلهة يا جلوكون لا تخف على شيئا وقل لى بأى شيء تبدأ بخدمة الوطن . فسكت جلوكون وظل يبحث فى نفسه عما عسى أن يبدأ به ، فقال له سقراط : لو أنك أحببت أن تعمر بيت صديق فستسعى إلى أن تغنيه ، وكذلك تسعى سعيك لتغنى وطنك . فقال جلو كون : هذا هو الحق . فقال سقراط : ولا شك أنك لا تزيد مال أثينا حتى تزيد دخلها . فقال جلوكون : لا شك فى ذلك . فقال سقراط : حدثنى إذا ما دخل هذه المدينة ومن أين لها هذا الدخل ، ومن

الجلي أنك قد درست هذا الأمر كما تستطيع أن تعوض النقص إذا لم تجد دخلها كافيا ، و كما تستطيع أن تسد العجز إذا غاب الدخل . فقال جلوكون : بالله يا سقراط إنني لم أدرس هذا الأمر . فقال سقراط : إن كنت لم تدرس دخلها فحدثني عما عسى أن يكون خرجها فلا ريب أنك تريد أن تلغى الزائد منه . فقال جلوكون : بالله يا سقراط إنني لم أدرس هذا الأمر . فقال سقراط : لندع ثراء المدينة ، ولكن كيف تريد أن تسوس المدينة وأنت لا تعلم دخلها وخرجها ؟ فقال جلوكون : ولكن نستطيع أن نغني أوطاننا من خسائر أعدائنا . فقال سقراط : بالله ما أصدق ذلك لو كنا أشد مراساً من أعدائنا فإن كنا أضعف منهم فقدنا أموالنا الخاصة . فقال جلوكون : هذا حق . فقال سقراط : إنه ينبغي لمن أراد أن يحارب قوما أن يعلم قوته وقوة أعدائه حتى إذا رأى أمته أقوى جانبا من عدوها نصح لها بالحرب ، وإن آنس فيها ضعفا نصحها أن تتق الحرب . فقال جلوكون : إنك تقول صدقا . فقال سقراط : قل لي إذن ما قوة أثينا في البر وفي البحر وما قوة أعدائها . فقال جلوكون : بالله يا سقراط إنني لا أستطيع أن أقول لك ذلك شفاها . فقال سقراط : فإن كنت كتبت في ذلك شيئا فأسمعنيه ، وسأصغي إليك بكل لذة . فقال جلوكون : بالله إنني لم أكتب شيئا .

فقال سقراط : لندع الحديث عن الحرب فالعلمك لم تدرس فنونها لسعتها وأنت حديث عهد بالسياسة ، وأنا أعلم أنك فكرت من قبل في أمر الدفاع عن أرضنا وأنت تعلم ما يكفي من جند الثغور وتعلم عدد ما يريد كل ثغر وتعلم إن أشرت أن تشير بزيادة القوى اللازمة وتسريح ما لا يلزم . فقال جلو كون : بالله لأسرحهم أجمعين ، فإن اللصوص لا تحفل بهم شيئاً . فقال سقراط : لو أنك سرحت حراسنا أفلا تظن أنك تفسح السبيل لمن أراد فيبعث بأرضنا ما شاء ، ولكن هل زرت بنفسك هؤلاء الجند وكيف علمت أنهم ساءت حراستهم ؟ فقال جلو كون : إنني أفترض ذلك . فقال سقراط ألا ترى أن ندع هذه المسألة حتى تعلمها عن يقين ولا نقنع فيها بهذا الافتراض ؟ فقال جلو كون : وربما كان ذلك خيراً . فقال سقراط : إنني أعلم أنك لم تزر مناجم الفضة حتى تستطيع أن تقول للأثينيين ما بالها لا تغل اليوم كما غلت من قبل . فقال جلو كون : إنني لم أذهب إليها . فقال سقراط : لا شك أنك لم تذهب إليها لأن الناس يقولون إنها فاسدة الهواء وذلك عذر جميل أن تدلى به إذا تشاور الأثينيون في هذا الأمر . فقال جلو كون : إنك تسخر مني يا سقراط . فقال سقراط : إنني أعلم أنك لم تدرس هذا الأمر ، ولكنك درست الغلة التي تثمرها أرضنا ، ودرست كم تكفي هذه

الغلة لغذاء المدينة ، ودرست ما يلزم المدينة عاما ، حتى تكون
 على بينة إذا أصاب المدينة نقص في غلتها ، وحتى تعلم إذا
 شاورتك المدينة في الأشياء الحيوية اللازمة أن تنقذها وتعصمها
 من القحط . فقال جلو كون : إنك تسألني أمراً عسيراً إذا شئت
 أن آخذ نفسي بكل ما تريد . فقال سقراط : وأخيراً لا يستطيع
 امرؤ أن يحسن القيام على داره حتى يعلم كل ما يلزمها وحتى
 يهيئ لها ما تريد . والمدينة قائمة على أكثر من عشرة آلاف بيت
 ومن العسير أن تقوم على إدارتها جميعاً مرة واحدة فما بالك لا تحاول
 أول الأمر أن تعمر بيتاً واحداً كبيت عمك وهو بلا شك بحاجة
 إلى التعمير ، فإن استطعت أن تعمر بيتاً واحداً كان لك بعدئذ
 أن تسعى إلى تعمير بيوت الأكرهين وأن أنت عجزت عن أن
 تنفع داراً واحدة فكيف تطمع أن تعمر دوراً كثيرة ، كالذي
 يعجز عن حمل عبء خفيف ثم يحاول أن يحمل الأعباء الثقيل .
 فقال جلو كون : لقد كان بيدى أن أعمر دار عمى لو أنه
 رضى أن يقتنع برأى . فقال سقراط : أما وقد عجزت عن إقناع
 عمك وحده فكيف تحسب بعدها أنك قادر على إقناع الأثنيين
 جميعاً وفيهم عمك ؟ ! فاحذر يا جلو كون أن تقع في المخزيات
 وأنت تطمع في المجد . أو لا ترى أنه ضرب من الجبال أن نتكلم
 فيما لا نعلم وأن نعمل ما ليس لنا به من علم . ثم تدبر أمر

هؤلاء الذين ترى والذين يتظاهرون ويقولون ويعملون ما ليس لهم
 به من علم فهل تراهم أهلا للحمد أم تراهم أهلا للوم ؟ وهل
 تراهم أهلا للإعجاب أم تراهم جديرين بالاحتقار ؟ ثم تفكر
 في أمر أولئك الذين يعلمون ما يقولون وما يفعلون وأنا على يقين
 أنك ستجدهم أهلا للذكر الجميل في كل أمر وتراهم موضع الإكبار
 والإعجاب بما يعلمون . وما كانت الشهرة المشينة والاحتقار
 إلا نصيب الجاهلين . فإن كنت تشتهي المجد والذكر في المدينة
 فاحرص على أن تعلم كل العلم ما تحب أن تعمل فإذا بلغت
 في العلم ما لم يبلغه الآخرون فخذ نفسك بعدئذ بسياسة المدينة
 ولست أعجب بعدها أن يتيسر لك كل ما تشتهي .

الأعمال والأيام

كان في حياة سقراط جانب « أثيني » وجانب إنساني . وقد بلغت أثينا هذا الجانب الإنساني فيما خلقت عقول الأكثرين من بنيتها : فقد تجاوزوا في خلقهم حاجة العامة إلى آفاق الكاملين ، فلا يكادون يصورون شيئا حتى نرى الإنسان الحي في كل أرض ولا يتحدثون عن شيء حتى تصغى إلى ضمير الإنسان النبيل في كل دهر . ولكن هذا الجانب الإنساني الكامل في حياة سقراط إنما كان - لو تفكرنا - سببا إلى غاية عزيزة على الأثينيين وهي سعادة أثينا نفسها . فالإنسان كائن سياسي كما يقول أرسطو : فهو يعيش بآماله وأعماله لمجد المدينة ، ولا تسعد المدينة إلا بفضائل الصالحين من بنيتها . وكانت غاية سقراط أن ينهض إلى خلق من يسميهم « حراس المدينة » - أي حاكميها - حراسا ساهرين على سعادة أمتهم .

وقد شغف سقراط حبا بمدينته وعاش لا ينجو في قلبه هذا
 الحب ولا ينصرف عنه لناحية من نواحي المنافع الدنيا ، وقد
 استأثرت أثينا بأفئدة العالمين وآمال الصالحين من بنيتها فخلتوا
 أرزاقهم وأغلى ما تلقىه الطبيعة في أعناق الناس . واشربت
 أعناقهم إلى المجد الذي يسمو بأمتهم إلى الخلود . وقد رأيناهم
 يؤمنون بهذا الخلود إيمانا لا ريب فيه ، وقرنوا هذا الخلود بما تصنع
 أيديهم من صور الجمال والخير . ولا سبيل لأمة أن تبلغ ما بلغت
 أثينا حتى يجاوز بنوها نطاق الهوان ويحطموا في أنفسهم أغلال
 المادة ويمضوا مصعدين لا يلوون على شيء من دون الكمال . ولو
 أنهم قنعوا بما يقنع به عامة الناس من رضا ومرت بهم الحياة دون
 أن تخرج الأنفس كنوزها من الجمال والعقل ما قدست أمتهم
 في أفئدة العالمين . وما كان عبثا أن تحج الإنسانية العالمة إلى
 أثينا وتطأ مواقع أقدام الحكماء والشعراء والخطباء والمصورين ،
 فلم تقنع أثينا من بنيتها الصالحين بشيء دون أن يحملوا نور الجمال
 والخير إلى العالمين . وقد طوت الأقدار أرض أثينا لحراب الغالبيين
 غير مرة لكنهم إن تكشفوا ما تضرر هذه المدينة من كمال
 إنساني قبعوا عند شعاعها كالطفل الجاهل السامع المطيع .
 وصغرت عليهم حراهم وأعزوا هذه الأرض التي غطت بترابها

الأبطال والحكماء . وما كان عبثاً أن يقول قائل منهم « إن أرواح
الأبطال حراس للوطن » . وفي أرض هؤلاء الأبطال تخر الجباه
سجداً للجمال المفرد العلم الذي سما بالإنسان إلى آفاق الخير
والكمال ، وفي آثار هؤلاء الأبطال تمتد آمال الصالحين من كل
أرض وفي كل زمان لتتلقى نور الإنسانية وتسمو بالإنسان إلى
ما خلق له حقاً من الكرامة والخير ..

* * *

وكان سقراط يصغى في ضميره لدعاء أمته التي تدعوه في
صحوه وفي منامه « خذ نفسك بالفنون الجميلة » ثم يتلو عليه هاتفيها
نداءه غير مرة « خذ نفسك بالفنون الجميلة » . ويحار هذا الحكيم
في تأويل هذه الأحلام فما كان سقراط بشاعر يَمْضِي في الشعر ،
وما كان سقراط بموسيقي يَمْضِي في الموسيقى ، وما كان مصوراً ولا
مثالاً ليخلق مثل ما خلق « فيدياس » وتلاميذه من الصور
والتماثيل ... وقنع سقراط بأن يجعل الحكمة فنه الجميل الذي
يعيش ويموت له ... فلم يعمل أبناء أثينا عملاً مفاجئاً متقطعاً
تمليه صحوة في ساعة من ساعات العمر ، وإنما كانت أعمالهم
أعماراً ، وكانت أعمارهم أعمالاً يَحْيُونَ ويموتون لأمل مفروض

لا تحيد عنه نفوسهم ... ومن وراء أعمارهم تمتد أيماهم بمشاعل
 الخير والجمال إلى الناس .. حتى إذا قضت أمتهم فلم ينهض من
 بينها ناهض يتلقى هذه المشاعل بائمين مكثت هذه الأيدي تمتد
 إلى الإنسانية جميعاً وما تزال تمتد بنور الإنسانية إلى أن
 يشاء الله .

* * *

وكان الفن الجميل الذي وهب له سقراط نفسه حيا وميتا
 هو أن يعلم أمته فن السياسة الحق وكانت قد أغفلته ساعة غابت
 معالم الحق في ليل المطامع والفتن

لا تصلح هذه السياسة إلا بما صلح به أولها وهو الفضيلة
 والعدل وستستمع إليه طائفة ولا تعي ندائه طائفة . وتغرب
 ساعة أثينا بعد ساعة سقراط ، ولكن حكمة الأقدار قد صيرت
 أثينا شيئا أشبه بأبطالها ، فلا يكاد يطويها الغروب حتى تشرق
 من ناحية أخرى شمس ليست أدنى بهجة من شمس الحياة ،
 وتضيء معالم السبيل للإنسانية جميعا . وتمتد آفاق أثينا
 فتحتمل آفاق الإنسان من كل جنس ، وتكون حياة بنينا

الصالحين أسوة للصالحين ، وتسمع نداءها ونداءهم في
الحالدين

* * *

ونادى سقراط قومه فقال يا قوم إنه لا يصلح لسياسة أمة إلا
الفاضلون ، والفضيلة الاجتماعية السياسية هي العدالة .. وهي
جامعة لسائر الفضائل ، وما كان أمرها ييسر على كافة النفوس ،
لأنها تكليف في سبيل سعادة الآخرين .

وقد حسب أرسطو أن نداء سقراط لا يفسر معنى الفضيلة
السياسية الحققة ؛ لأن الفضيلة إذا أخذت على علاقتها قد تلتقي
في أذهان الناس معنى الفضيلة السلبية التي تعتزل ولا تشارك في
سياسة الأمة . فليس يكفي أن يكون السياسي فاضلا كاملا دون
أن ينهض إلى سياسة أمته ، وليس يكفي أن يقبع في عزلة هادئة
طيبة لا تتلاطم من حولها الأمواج ولا تعصف بها الأعاصير ،
وأن ينعم هنالك بنعيم فضله وعقله في صفاء السكون ... ولا قدر
لهذه الفضيلة السياسية من دون نضال وجهاد .. حتى يجاهد المرء
نفسه في نشوة الحكم . ولا قدر لهذه الفضيلة السياسية من دون
نضال في سبيل الخير العام .. حتى يناضل المرء ما يلتقي من أهواء

وما يعوقه من معوقات الأشياء والأحياء ، وحتى يحمل العبء
 حكماً عادلاً صالحاً تقياً عالماً شجاعاً . وما تغني هذه الفضيلة عن
 أحد إن اعتزل الأمر وخلي السفينة للمفسدين . « إننا لا نجعل
 بطولة الأولامب إلا للمصارعين الذين يصارعون في ساحة البطولة
 بأنفسهم وما يكفيهم أن يكونوا أجمل الناس ولا أقوى
 الناس ولكنهم لا يبلغون تاج البطولة حتى يصارعوا في سبيل
 هذا التاج » .

ومن أجل ذلك فليس محل لأحد أن يكون فاضلاً حقاً حتى
 يولى فضيلته وكماله شطر صالح أمته .. وقد ظهر في الفلاسفة من
 بعد سقراط مذهب المعتزلين الذين يجتنبون السياسة في سبيل
 الحكمة ويؤثرون العافية على النضال وقد حسب كثير من
 الأثينيين سقراط من المعتزلة لأنه لا ينهض إلى منبر الخطابة في
 « الأجورا » كسائر السياسيين ، ولام الأثينيون الذين لم يستمعوا
 إليه ولم يعقلوا قوله هذا المذهب العجيب ، إذ يرونه شيخاً كبيراً
 منبثاً بين أطفال أثينا يقضى بينهم نهاره وطرفاً من الليل وخالوه
 مجنوناً .. غير أن سقراط شاء أن يدفع السيل من منبعه كما رأينا
 وأنبت بين الناشئين في حياتهم الأولى ليعصمهم من سيئات المطامع
 وليصيرهم حراساً وحكاماً صالحين ، وكان بعد ذلك جندياً شجاعاً

لا يزلزل أركان نفسه خوف ولا يحرص على شيء من أنفال الحرب ويلقى إلى أصدقائه ما يقسم له من مغنم القتال . وكان إذا قضى لا يحسب حساباً لأهواء الأثنيين وإن غضبوا وإن سخطوا ، ولا يحكم إلا بالعدل وبما ينفع الناس ، وكان يمشى إلى الصالحين العالمين فيحرضهم على أن يحملوا أمانة السياسة كما يتحدث تلميذه اكرزينفون :

فقد رأى سقراط أن شرميدس بن جلوكون يتهيب السياسة فلا يرشد أمته ، وكان أخا فضل وعلم بالسياسة . فقال له سقراط : حدثني يا شرميدس ، أرايت لو أن رجلا كان أهلاً لأن يكسب تاج البطولة في الأولامب وكان أهلاً لأن يؤوب بالحمد ويرفع ذكر أمته في سائر بلاد الإغريق ، ثم رأيت بعد ذلك لا أريد أن ينزل إلى مصارعة الأبطال فماذا عسى أن تعده ؟ قال شرميدس إنني أعده رجلاً جباناً لا خير فيه . فقال سقراط : وما بالناس إن رأينا رجلاً أهلاً لسياسة مدينته قادراً على أن يوسع الخير عليها وأن ينال من وراء ذلك ذكراً ثم لا يفعل ذلك - ألا نعهده جباناً عاجزاً لا خير فيه ؟ فقال شرميدس : هذا حق ، ولكن ما حملك على أن تسألني هذا السؤال ؟ فقال سقراط : إنني أجرك كفتاً

لأن ترعى أمتك رعاية صالحة ، وأجدك تتخلى عن سياستها ،
وهو أمر محتوم عليك لأنك واحد من بنيتها . فقال شرميدس :
فيم عرفتنى صالحاً لهذا الأمر ؟ فقال سقراط : عرفت ذلك فى
المجامع التى تجمع بينك وبين ساستنا ، فإن شاوروك فى أمر
أشرت بالسداد ، وإن أخطئوا فى أمر عدلت أخطاءهم . فقال
شرميدس : شتان ما بين ما نبدية فى مجامعنا الخاصة من رأى وبين
منازلة الخصوم فى المجالس السياسية . فقال سقراط : إنه
يستوى على العالم بالحساب أن يحسب وحده وأن يحسب
بين الناس ، ويستوى على من يحسن العزف على القيثارة
أن يعزف وحده وأن يعزف فى المحافل . ثم ما يزال به
سقراط حتى يقنعه أن يدخل فى حلبة السياسة كما تسعد
بفضله وعلمه أمته ، فإن سعدت أمته امتدت سعادتها إليه
وإلى أصدقائه ... » .

وهذا الحديث دليل على أن سقراط كان يدعو إلى فضيلة
إيجابية علماً وعملاً ، فيحض الصالحين ويثبط الجاهلين ويحارب
مواطن العلة فى نفوس الأثنيين . وقد أثرت عنه عبارة ما تزال
أصدق حكمة المعلمين « إن أكبر ما على المعلم أن يضىء

جذوة المجد في نفس المتعلم ، فإن علم الطلاب أنه لا خير لهم حتى
 يكونوا رجالاً صالحين هان عليهم في سبيل العلم كل جهد وبلغوا
 بأنفسهم غاية السبيل . « ولا سبيل لمعلم أن يوقد في أفئدة المتعلمين
 جذوة المجد ، حتى يكون في نفوسهم كاملاً ، وحتى يكون عالماً
 مؤمناً ، وحتى يبصروا خلال حياته وعلمه شعاعاً من قبس المجد
 الذي تولى إليه آمالهم . وهيهات أن يبلغ هذا المجد كل معلم ،
 والذين بلغوا هذا المجد كانوا هداة ورسلاً ، وكانوا بعد ذلك
 « ورثة الأنبياء » . وكانت أثينا تعد الشاعر معلماً ولا يكون
 الشاعر شاعراً حقاً حتى يجعل أمته أمة صالحة . وكانت تعد
 الحاكم معلماً ، ولا يكون الحاكم حاكماً حقاً حتى يصير أمته
 أمة صالحة . وكانت هذه غاية المعلمين في كل فن . فليس
 التعليم بقاصر على طائفة تباع معرفتها بمال قليل أو كثير ، ثم
 لا تستطيع أن تحيي قلباً ولا تستطيع أن تسمو بنفس ، ولا
 تستطيع أن تخلص لرسالتها إخلاص المؤمنين . كان سقراط
 لا يبيع علمه بمال ، وكان مؤمناً برسالته خالصاً لها لا يريد جزاء على
 ما أنفق فيها سوى أن يبصر تلاميذه خيرين صالحين ، وإلا أن
 يستمتع بوفائهم لأن الصداقة الوفية الطيبة أطيب متاع الحياة .
 وكان سقراط لا ينزل نفسه منزلة المعلمين الذين ينتظرون
 حتى يسعى إليهم تلاميذهم ، بل نراه يسعى إليهم سعى الصديق

إلى الصديق . فيغشى ساحات الرياضة ليلقاهم ويلعب كما يلعبون ، ثم يسوق اللعب الحكمة التي تزين أفئدتهم بعد ما تزينت أبدانهم بالرياضة واللعب . ومن شاء أن يهبي السعادة لنفسه هياً لها بدنأً كأبدان المصارعين وعقلاً كعقول الفلاسفة . و كان ذلك مارمت إليه أثينا في تعليمها ونرى سقراط يرد وتلميذه « فيدر » نبعاً سلسبيلاً في مشارف المدينة ليقرأ كتاباً بين أحضان الطبيعة .

سقراط : ... تقدم وانظر أين نجلس .

فيدر : ألا ترى هنالك شجرة « بلاتان » عالية ؟

سقراط : بلى .. وما شأنها .

فيدر : سنجد لها ظلاً ظليلاً ونسيماً عليلاً ونجد تحتها عشباً ننبسط فوقه .

سقراط : تقدم إذن .

فيدر : إننا قد بلغنا الشجرة .

سقراط : بحق « هيرا » إنه لموضع جميل وهذه الشجرة عالية

باسقة ضخمة ، وشجرات « الاخترس » شجرات

عالية ذات ظل ناعم وهي في أكمل ازدهارها وتملاً

الفضاء بشذى زهورها ، ويجرى من تحت « البلاتان »

نبع جميل بارد مأؤه كما تحس ذلك قدمي ، ولعل

هذا النبع قد نذر لبعض الحور أو « لأخيلاوس »

وأكد أرى ذلك من هذه التماثيل الصغيرة . ونسيم
 هذه الأرض زقيق عليل وتسمع لديه ألحان
 « السيجال » تجاوب أنشودة الصيف المطربة .
 وأنعم ما في هذه الأرض هو ذلك العشب المنحدر
 الطبيعي الذي يهيب لمن ينبسط فوقه وساداً مريحاً
 لرأسه .

* * *

ولا يقنع سقراط بأن يغشى ساحات الرياضة ليلقى تلاميذه
 بأن يصحبهم إلى أحضان الطبيعة الجميلة كما رأينا لينعموا وإياه
 بجمال النسيم وما يحمل النسيم من عبق الزهر ومن أصداء الهوام ،
 ثم يزودهم بعدئذ بحكمته ولم يخرج في ذلك عن بساطة الصديق ،
 ولا يلتقى تلاميذه بعلم ماثور محفوظ وإنما كانت معرفته «مذاكرة» .
 وأوتى سقراط مقدرة معجزة في إحياء ما نسيت نفوس سامعيه من
 قيم الخير وأصول الجمال ، ولا يغمرهم بأثر محفوظ معلوم وإنما
 يسألهم وهم يجيبون دون أن يعتمدوا في جوابهم على رأى محفوظ
 موروث . وشاء سقراط بذلك أن يحيى ما أغفل تلاميذه من معاني
 الفضيلة التي اعتزت بها أثينا من قبل ، وأقامها بالحوار على ضوء
 العقل .

« اعرف نفسك بنفسك » ذلك كان مبدأ مدرسة سقراط ،

أى استخراج ما بطن من صور الجمال والخير من نفسك .
وعرف سقراط كيف يستخرج هذه المعاني مما كمن في أفئدة
سامعيه ، وعلمهم كيف يشعرون ويتفكرون بمنطق صارم شديد .
وكان يتخذ كل سبيل في إغرائهم بالفضيلة ، وكان يحب
أن يحفظوا قول « برود كوس » عن الفضيلة :

« إنه لمن اليسير أن نبلغ الرذيلة زرافات ووحداً ... فسييلها
معبدة قريبة المنال . وأما الفضيلة فقد فرض الآلهة الخالدون من
دونها عرق الجبين ، وسييلها قائمة شاهقة عصية أول الأمر فإذا
بلغنا شرفها رأيناها هينة يسيرة رغم عنائها . »

ويذكرهم بقول « أبيكاروس » : « إن الآلهة آتتنا الفضيلة
لقاء ما ننفق في سييلها من نصب » ثم يمضى سقراط يلقي عليهم
نبأ الأولين في الفضيلة : فقد ذكر الحكماء أن « هراقليس » قد
شب عن الصبا ووقف لدى الشباب لا يدرى ما يفعل ، فإن
للحياة سييلين لمن أراد أن يمضى فيها : سبيل الفضيلة وسبيل
الرذيلة . فاتخذ مكانا قصيا لا يدرى ما يختار ، فأقبلت عليه
امرأتان جاءته إحداهما تمشي على استحياء ، وهى ذات وجه حر
نبيل وهى تمضى متتدة عاقلة ، وتلبس ثياباً بيضاً وأما
الأخرى فهى رخوة غضة بضة تغطى وجهها بطلاء أبيض وتحمر
خديها بطلاء أحمر لتبدو أجمل مما خلقها الله . تتخاطر في مشيتها

متعالية لتبدو أعلى مما هي ، ولا تسبل جفنيها حياء ولا تكف عن
النظر إلى نفسها تريد أن ترمقها الأبصار ولا تفتأ تنظر إلى ظلها..
أقبلتا إلى هراقليس فأما الأولى فقد سارت متئدة ثابتة الخطى وأما
الثانية فقد أسرعتهرول إلى ذلك الفتى، وقالت : «يا هراقليس..
إني أجرك حائراً لا تعلم ما تختار فإن صحبتني فسأمضي بك في
سبيل اللذات والهوى فلا تغني بشيء من العيش ولا تهتم بحرب
ولا تشغلك السياسة ، ولكنك تقضي زمانك سعيداً مستمتعاً بمتاع
الطعام والشراب ولذة السمع والبصر وحلاوة اللمس والحس وشهوة
الهوى وتستمتع بالفراش الناعم ، وستجد كافة هذا المتاع هنيئاً
مريئاً ، ولا تخف أن أسألك يوم ينضب معين هذه اللذات أن
تنفق في سبيلها هما ولا عناء .. ولكنك ستعيش على ما أنفق
الآخرون من جهد ، ولا تتورع عن نفع يجيئك من ناحية من
النواحي ، وأنا أهيب لرفاقي أن ينالوا المنافع حيث كانت » .
فلما استمع إليها هراقليس قال لها : أيتها المرأة ما اسمك ؟
فقلت إن رفاقي يدعونني « الهناءة » وأما أعدائي الذين يكرهونني
فإنهم يسمونني ويسمونني « الرذيلة » . ثم جاءت الأولى وقالت :
« وأنا أيضاً أنقرب إليك يا هراقليس فأنا أعرف أبويك وأعلم
نفسك منذ الصبا ، فإن سلكت طريقى فستبني ما يمجرك
ويبقىك ثم تجعل لي في الصالحين ذكراً عالياً وبهاءاً ونورا ،

ولست ببساطة لك في مغريات المتاع ولكني أقص عليك الأمر
بالحق كما خلقتة الآلهة إن الآلهة لم تقدر لأحد مجداً من
دون مشقة ولا عناء ، فإن أحببت أن يبارك الله سعيك فيجب أن
تعبد ، وإن شئت أن يحبك أصدقاؤك فيجب أن تحسن إليهم ،
وإن أردت أن يمجذك وطنك فيجب أن تنفعه ، وإن ابتغيت
أن يتمدح اليونان جميعاً بقدرك فيجب أن تعمل عملاً صالحاً ،
وإن أردت أن تؤتيك الأرض ثمارها فيجب أن تثمرها ، وإن
أردت أن تكثر رعييتك فيجب أن ترعاها ، فاتبعني إذن ولا تتبع
سبيل الشهوات « . واختارت الآلهة لهرقليس سبيل الفضيلة
وجنبتة سبيل الهوى .

عدالة سقراط

وقضى سقراط أكبر شطر من زمانه يبشر بفضيلة العدالة خاصة .. لأنها هي الأساس الذي تقوم عليه سعادة الحكم في وطنه وتقوم عليه سعادة الأفراد في نفوسهم ، وما فتئ يبشر بجمال هذه الفضيلة حتى سرى هذا الجمال إلى بيان أرسطو الذي يعد العدالة أم الفضائل جميعاً ويرأها شيئاً جميلاً فاتنا لا يضاهي جمالها « إصباح النهار ولا إمساء العشية » ، وهي الفضيلة التي تحقق ✓ سعادة من حولنا من الناس .. وفصل أرسطو أطراف هذه العدالة فصولاً : العدالة الأخلاقية وهي جامعة الفضائل جميعاً ، ثم عدالة القسمة وهي وقف مناصب الدولة على الأكفاء ، ثم عدالة التكافؤ وهي إيتاء كل ذي حق حقه

ولم يكن أرسطو بخالق مبدع لهذه الفصول ولكنه جمع ما تفرق على لسان سقراط فقد كان سقراط مبشراً وشهيداً ، وجعل نسكه وصلانه ومحياه ومماته للعدالة ، وذهب في ذلك مذهبا لا يكاد يعقله عامة الأحياء في كل دهر . إنما هو طاعة النفس للحق تطهيراً وزكاة للنفس حتى لا تقوم على إثم يفسدها ويأخذ عليها

سبل الجمال والحير . ويكاد لا يعقله إلا من زكت نفوسهم
 زكاة طيبة فلا يستحبون لذة الباطل على آلام الحق . ولا
 يكاد يعقله إلا الشهداء والأنبياء والصالحون . وحارت ألباب الذين
 يجادلونه في الحق والعدل . إنما يجادلون سقراط بنفوس غلبتها
 شهوات السلطان والجاه ويجادلهم سقراط بنفس تطيع داعي الحق
 والصدق وتحتقر شهوات الحياة الدنيا ويحترم بينه وبينهم
 جدال شديد يقتلع مذاهب تلاميذه من أصولها الأولى ويطرحها
 بين أيديهم هشياً فاسداً لا خير فيه ، وتلاميذه في ظاهر الأمر
 يأتونه بما يؤمن به عامة الحاكمين في أثينا في ذلك الزمان . فقد
 آمن أكثر الحاكمين « أن الظلم من شيم النفوس » وأن العدالة
 شيء من صنع المفكرين وكفى ، وهي رياضة للنفس منذ الصبا
 حتى تدع النفس شهواتها الأولى وتتبع سبل التلقين والرياضة ،
 كالذي يروض الأسد صيباً فينتزع بالرياضة وحشيته الأولى ثم
 يستأنسه بالتعليم ، فالعدالة تعليم ورياضة (في زعمهم) والظلم
 سجية أولى وغريزة أصيلة في النفس . ثم جاءوا على ذلك ببرهان
 بين فوق طاعة أهواء النفس ، فما تتجافى النفوس عن المظالم إلا
 إشفاقاً من عقاب وخوفاً من شريعة سنتها جماعة ما ، حتى يعيش
 أفراد هذه الجماعة في سلام وحتى لا يمحق القوى الضعيف .
 والعدالة ليست (في زعمهم) إلا حماية الضعيف من القوى بسائر

السبل المعارضة لسنة الطبيعة التي أباحت مظلمة الضعيف ،
 وآية ذلك عندهم أن راعياً لملك « الميديين » أوتى ذات نهار سراً
 عجبياً يخفيه عن أبصار الناس ما شاء ، فسولت له نفسه أن يأتي
 سائر آيات المظالم دون أن يقفه خلق أو يردعه ضمير . فقد
 زلزلت الأرض من حوله ذات نهار وألقت السماء مطراً شديداً
 وشقت صفحة الأرض ، فنظر ذلك الراعي فرأى في ثغرة في باطن
 الأرض جواداً من برنز ووجد في جوف هذا الجواد جسد رجل
 ميت ولا كأجساد الرجال ، ووجد في أصبع الميت خاتماً فأخذه
 ومضى بعدئذ إلى حلقة الرعاة ، وكانوا يجتمعون ويتشاورون فيما
 عسى أن يبسطوا للملك من أمر عملهم ، فدار برأس الخاتم حتى
 انطوى في راحة اليد فخفي عن أقرانه لا يبصرونه وهو قائم بينهم
 ويتحدثون عنه كما يتحدثون عن غائب ، فعجب ، ثم طوى
 رأس الخاتم حتى ظهر في أعلى اليد فبدا لهم . ولما آمن بسر هذا
 الخاتم الذي يخفيه إن شاء ويبيديه إن شاء خرج في وفد إلى الملك
 واقترب هنالك القتل والسلب والمظالم جميعاً ولم يردعه من نفسه
 رادع . ولو أن كل امرئ قد أوتى قوة تعصمه من عقاب الجماعة
 ما حال بينه وبين المظالم حائل ، وأتاها طائعا لشهواته الأولى ...

* * *

وذهب أصحاب ذلك المذهب في اقتناعهم بمذهبهم إلى شأو

قصي ، وهو أن الظلم أشهى إلى النفس من العدل ، وأن أخا
المظالم سعيد وأخا العدالة شقي ، فحسب الظالم أن يبرع في الظلم
وأن يبلغ في المظالم المثل الأعلى ، وهو أن يستلب العدالة ثوبها
الجميل فيتزييا بثوبها أمام الناس فيخدع به الجاهلون ويلقوا إليه
أعنة أمورهم ويأخذ نفسه بالقاعدة المشهورة (Paraitre et
non être) يرأى الناس ولا يكثر بالحق ، ثم يقترف بعد ذلك
ما طوعت له نفسه من إثم حتى يبلغ مأربه ، فيكون له الحول
والقوة ويشترى أصدقاء ويتألف قلوبا ويعد الناس ويمنيهم
وينذر النذور للآلهة فيغفر له الآلهة ما تقدم من ذنبه وما تأخر
ويتكاثر أحباؤه ويمدأ ذكره الأسماع ويتزاحم الناس على بابه .
أما العدالة في زعمهم فإنها تردى أهلها دار البوار ، وذلك بأن
العادل الحق لا يزور أمر نفسه على الناس ، فهو قانع بجوهر
العدل لا بمظهره ، ولا يحفل بحكم الأحياء على خلقه ، ويمضي
بين الناس بسيطا لا ينم ظاهره عن شيء وقد يتشابه أمره على
الجاهلين فلا يدري الجاهلون أعادل هو أم ظالم ، لأنه خلع
ثوب الرياء وعاش عيش البسطاء ، وقد يذهب رياء الظالمين
بفضله لأنهم لبسوا ظاهر العدل ونزلوا في أفئدة العامة منازل
العادلين وما هم بعادلين في شيء . والعادل الحق لا يأتي زورا
ولا كذبا ، فإذا فرضت فريضة على العادل والظالم على سواء

أخى الظالم بعض ماله وقال العادل كل ماله ، فاحتمل من الأعباء
أضعاف ما يحتمل الظالم ، وفاز الظالم بعد ذلك بالسمعة الطيبة وقد
تعرض صفحة العادل للوم اللاتمين .

* * *

ولاريب أننا نجتنب جانب الصواب إن حسبنا أن هذا المذهب
كان جدلاً مدرسياً وكفى ، وأن ذلك كان عبث الفارغين من
الأثنيين ، وقد رُمى سقراط ظلماً بهذا اللوم كأنه خلى فارغ
يجادل أبناء وطنه بما لا يغنى من الحق شيئاً إنما كان سقراط
يحارب وباء سياسياً تفشى في أنفس الأكثرين من قومه ، فلم
يكن لهم مأرب من دون الحكم ، واتخذوا إلى الحكم سبيل المظالم
والأهواء كان حكام الطغام من بعد « بيركليس » يؤمنون
أن العدل ليس شيئاً سوى حق القوى على الضعيف ، وانقلب
الأثنيون شيعاً وأحزاباً يتشيعون لزعماء لا يبتغون شيئاً فوق أن
يظهروا على منافسيهم ويستوى لديهم العدل والظلم والشرف
والعار . إنما يمتنون أمتهم الأمانى ويزجون بها في كل ريح عاصفة .
وكان هذا الخلق السياسى أشبه بالهزة النفسية التى لا تقف عند
نفس بل تسرى فى الأمة إلى أصول الحياة فى كل شىء .
فزعماء السياسة أمام كل عين ومثلهم فى الخير وفى الشر
يعدو إلى نفوس الناس فى حياتهم . . . وقد تسعد أمة فى حياتها

ما شرفت غاية رجالها السياسيين . والذي لا ريب فيه أن تياراً خفياً قائماً يسرى بين الحاكمين والمحكومين ، ولا نرى «سولون» متجنباً للنظر البعيد يوم لام ممثلاً على مبالغته في تصوير خُلُق في شعره ، فأجابه الممثل أن ذلك حديث خرافة بولغ فيه فتجاوز الصدق صورة لا فعلاً . فقال له سولون : « أولاً تدرى أن هذه هذه الصورة تسرى من حيث لا ندرى إلى قلوب الناس فترى آثارها فجأة في عقودهم ومعاملاتهم ؟ » .

* * *

كان سقراط بعد ذلك مصلاً شديداً الإحساس بكل ضلالة تجتاح أفئدة الحاكمين ، ولم ينازلهم في مطامعهم ، بل أحب أن يتقى الوباء وأن يعصم المدينة من أساسها ، فانصرف يعلم الناشئين الذين لم يحتملوا أعباء الحكم من بعد حتى إذا قدر لهم أن يحملوا الأمانة يوماً كانوا اختياراً عادلين . والذين آمنوا من الأثينيين بأن العدالة هي حق القوى على الضعيف لم يعدوا حجة يحتجون بها « وأنا أعتقد أن الطبيعة نفسها أملت أن من العدل أن ينال القوى نصيباً أكبر من نصيب الضعفاء . ولا خلاف في هذه القاعدة في كل مكان بل نرى ذلك سنة في الأنعام والإنسان على سواء ، ونرى ذلك في المدينة وفي أبناء الأسرة نفسها . إنما يملى العدل أن يحكم الصالحون العاجزين وأن يغنم القادرون حظاً

من الأموال والثمرات أكبر من نصيب الضعفاء ، وإلا فحدثني
بأى حق حمل كسرى على اليونان بجنده وحمل أبوه من قبله على
بلاد « الاسكيت » ، ولا تكاد تحصى أشباه هذه الأمثال ..
ولا ريب أنهم قد أطاعوا طبيعة العدل نفسها وهو ما يمليه قانون
الطبيعة نفسها ، وقانون الطبيعة قد يخالف ما وضعنا لأنفسنا من
قوانين ، فإننا نأخذ من سبقنا فضلاً وقوة ونهذه صبياً بالإيحاء
والإغراء والتأمم ونروضه كأشبال الأسود كما يشب طيعاً رضيعاً
ذلولاً ، ونلقنه العفة والمساواة ونعلمه أن ذلك هو الجمال والخير ...
ولكن دع أحداً من أولئك الموهوبين يشب عما ألقينا في عنقه من
طوق ويرم القيود والأغلال وي طرح تماثنا ورقانا أدراج الرياح
ويعص سائر قوانيننا المخالفة للطبيعة ، فحينئذ يسمى طاغية
مستبداً فينا من كان من قبل عبداً ذلولاً ، وحينئذ نرى قانون
الطبيعة جهرًا كوضوح النهار ، وإخال أن « بندار » أفصح عن
ذلك الرأي في قصيدته التي يقول فيها :

« القانون الذى أوتى ملك كل شىء فى حياة الأحياء والآلهة
الحالدين جميعاً والذى شرع للقوى أن يصير كل شىء بيده
العليا . »

فما يفعل سقراط فى تصحيح هذ النفوس التى فتننت بشهوة
الحكم ولا ترقب فى سعادة المدينة إلاً ولا ذمة ؟ إنما يناضل بما

أوتى من عقل وقوة ، فيقول لصاحبه وهو يحاوره :
 سقراط : دعنا نستذكر ما قلت أنت « وبندار » عن هذه
 العدالة الطبيعية . أو لم تقولوا إن الطبيعة قد أباحت
 للقوى أن يغتصب مال الضعفاء ، وأحلت للقادرين
 أن يحكموا العاجزين ، وأملت أن يكون للقادرين
 قسط في الثمرات والأموال أكبر من نصيب الضعفاء .
 فهل تراك قلت شيئاً غير هذا أم ترانى على حق
 فيما ذكرت ؟

كالليكلس : أجل إننى قلت ذلك وأكرره .

سقراط : قل لى بادئ الرأى أتسمى القادر والقوى باسم واحد ،
 لأنى لم أستطع أن أفهم عنك ما تقول ، وهل تعد
 القادرين أقوياء وترى أن على الضعفاء أن يطيعوا
 الأقوياء ، فإن ذلك ما قد فهمت حينما سمعتك
 تقول إن العدالة الطبيعية أحلت للدول الكبرى أن
 تغتال الدول الصغيرة لأنها قوية وقادرة ، وإن
 القوى والقادر والصالح شىء واحد لديك . أم ترى
 أن يكون الإنسان صالحاً وهو نفسه عاجز وضعيف ،
 أو قد يكون الإنسان قوياً وهو نفسه ضعيف ، أم
 هل تعرف الصالح بتعريف غير تعريف القوى ؟

بين لى بربك ما تفرق به بين تعريف القادرين
والأقوياء والصالحين .

كالليكلس : إننى أقول لك قولاً بيناً : إن القوى هو القادر
والصالح .

سقراط : فالأكثر عدداً هم إذن أقوى فى الطبيعة من
الفرد ، أو ليس كذلك ؟ فقد أسلفت أنت أنهم
يسنون القوانين للفرد .

كالليكلس : ولم لا ؟

سقراط : فقوانين الأكثرين عدداً هى قوانين الأقوياء .

كالليكلس : نعم .

سقراط : وإذن فهى قوانين الصالحين ، لأن الأقوياء
والصالحين شىء واحد فيما زعمت .

كالليكلس : نعم .

سقراط : أولم تقل منذ حين إن الأكثرين عدداً يعدون
المساواة عدلاً

كالليكلس : بلى ، إن ذلك ما يعتقده الأكثرون .

سقراط : وعلى ذلك فالمساواة عدل ولا فرق إذن بين القانون
الموضوع وقانون الطبيعة .

حينما ينتهى سقراط إلى أن يسقط خصمه فى مثل هذه المناقضة
يحتدم بينهما الحوار ويحمى وطيس النضال ويشتد بعضهما على
بعض فى الصراع ، وتتساقط حجج خصمه بين هزو السامعين
وتسقط فى أعين السامعين هيبة خصوم سقراط . فانظر كيف
يألم كالليكلس من عثراته .

كالليكلس : إن ذلك الرجل لا يقلع عن سخافته . قل لى
يا سقراط : أولاً يستحى من كان فى سنك من أن
يلعب بالألفاظ ، فإن بدل أحد كلمة مكان أختها
حسبت ذلك غلباً ، فهل رأيتنى أفرق بين الأقوياء
والصالحين ، وهل لم أحدثك من قبل أن الأقوياء
والصالحين شىء واحد لا فرق بينهم ، وهل حسبتنى
أذهب إلى أن عدداً من العبيد والمشردين الذين
لا قوة لهم إلا فى أجسامهم يستطيعون أن يجعلوا من
قولهم شريعة يسير بها الناس ؟

سقراط : أتقول ذلك يا كالليكلس أيها العالم العارف ؟

كالليكلس : نعم إنى أقول ذلك .

سقراط : ولكنى أيها العزيز قد فهمت منذ حين بعيد ما
عسيت أن تسمى بالأقوياء ، غير أنى سألتك لأكون
على بينة جلية مما تريد ، وأنت لا تعد رجلين خيراً

من رجل ولا تعد عبيدك خيراً منك لأنهم أقوى
ساعداً منك . وعلى ذلك فتعال إلى المسألة من أولها
وقل لي ما ذا تعنى بقولك الصالحين إن كنت تفرق
بين الصالحين والأقوياء ؟ ثم إن عليك أيها الصديق
أن تعلمنى هوناً ما حتى أستطيع أن أقنع بما تقول .

كالليكلس : إنك تلمز بالقول .

سقراط : لا وحق « زيتوس » الذى كثيراً ما شبهتني به
لتسخر مني ، ولكن قل لي كيف تعرف الصالحين ؟
كالليكلس : إنهم الأفضلون .

سقراط : إنك ترى بنفسك أنك تقول كلمة مكان أختها
وأن ذلك لا يوضح من الأمر شيئاً ، فهل ترى أن
من تسميهم بالأقوياء والأفضلين عقلاء وحكماء
عالمين أم تراهم شيئاً غير ذلك ؟
كالليكلس : هم عقلاء عالمون ولا إبهام في الأمر .

* * *

ويشدد ساعد سقراط فيرمى خصومه رمية المؤمن للكافر وتجده
صارماً متهماً ساخراً ، وتتجاوز رميته محاوريه إلى ما يهدد وطنه
من شر سياسى ، وكأنه يتحدث إلى الطامعين من الحكام
وإلى المتوثبين إلى حكومة لا تبسط العدل بين الناس ولا تحرص

على شيء كحرصها على المنافع الذاتية العاجلة ، فإذا بلغ
 الحاكمون مناصب الحكم بالدهاء أو بالذكاء استمروا مال الدولة
 واختصوا أنفسهم بمغانم كثيرة وطابت لهم اللذات وخرجوا من هذه
 الثمرات العامة بنصيب الفاتحين . ولا يطيق سقراط أن يستبيح
 الحاكمون حرمة الدولة ، فيطلقوا أيديهم في خيرات الجماعة ،
 لا يرقبون في الجماعة رحمة ولا شفقة ، وينفقون مال الدولة فيما قد
 يكسب الحاكم وحده ما يشتري من الحمد وما لا ينفع الأمة
 شيئاً . ويشفق سقراط من أن يسرى مثل السوء إلى أفئدة الناشئين
 فتشرب أعناقهم إلى مغانم الحكم ، فقوم هذا العوج مرة بنقد
 لاذع أليم . فالطبيب الكامل الذي لا ينزل عن شرف غايته إنما
 يداوى المرضى لخير المرضى ولا يجعل للأجر أول همه وآخره ،
 فإن حرص على المال وحده فهو مرتزق أجير هوى عن شرف
 الغاية من فنه إلى حاجة المال الدنيا . والراعى الذى يرعى غنمه
 بغاية شريفة تصيره راعياً كاملاً حقاً وصدقاً ، إنما يرعى غنمه
 ليعصمها من الذئب ويرد بها موارد الكلاء والماء ، فإن هو نزل
 عن شرف غايته فسمن الشاة ليدبحها ويستطعم لحمها هو ورفاقه
 فليس براع فى معنى الفن الشريف . وقائد السفينة الحق لا
 يشغل قلبه بشيء من دون سلامة الراكب ، أما ما يأتيه من
 استمتاع بالبحر وما يناله من قوة وصحة فليس ذلك مأربه الأول

والأخير ، إنما هي مغنم عرضية دون غاية فنه ، وهي السهر
والحرص على سلامة الركب . والحاكم الحق الذى لا يهوى عن
شرف غايته إنما يحكم الناس ليصيرهم أسعد حالا ، ولا يحرص
على الأجر حرص المرتزقة المأجورين ، ويحرص على سعادة
المحكومين وحدهم ، فإن لم يفعل فما هو بحاكم حقاً وصدقاً .
والحاكم عند سقراط لا يحكم الناس لخير الناس وكفى ، بل
لا يكون أهلاً للحمد حتى يجعل وطنه أصالح حالا مما كان يوم
وليه ، ولا يغنى عنه ما يوفر على المحكومين من مال وما يزودهم
به من عتاد إن خلا قلبه من الجمال والخير . ورجال السياسة
الأثينيين لم يعتصموا من تجريح سقراط حتى « بريكلليس »
نفسه .

سقراط : إنى أريد أن أعلم علم اليقين ما يجب أن يتخلق به
السياسيون فى أثينا ، وهل لك قصد إن وليت الأمر
فيها من دون أن تجعلنا قوماً صالحين فاضلين ؟
فقد اعترفت غير مرة أن ذلك فرض على من يلي
سياسة الناس . هل أقررنا بذلك أم لا ؟ أجب .
نعم قد أقررنا ، وأنا أجيب نيابة عنك ، فإن كان
ذلك ما ينبغى للسياسة الصالحين أن يوفرؤا لأمتهم ،
فقل لى ما عسى أن تقول فى أمر هؤلاء الحكاميين

الذين ذكرت منذ حين ، أفتراهم كانوا ساسة
صالحين ؟ أريد بيركلليس وسيمون وملتياد
وتيمستوكليس .

كالليكلس : نعم .

سقراط : لو أنهم كانوا صالحين فمن البدهة أن كل امرئ
منهم قد ترك أمته أصلح حالا مما كانت يوم
تولاها .

كالليكلس : ذلك حق

سقراط : وعلى ذلك فهل ترى أن الأثينيين باتوا أصلح حالا
آخر أيام بيركلليس منهم يوم نهض فيهم خطيباً
أول الأمر ؟

كالليكلس : ربما .

سقراط : لا تقل ربما ، ولكن قل حتماً ؛ لأن ذلك هو
النتيجة الحتمية لما أقرناه لو أنه كان سياسياً حقاً
وصدقاً .

كالليكلس : وماذا تريد الآن ؟

سقراط : لا أريد شيئاً ، ولكن قل لي هل نستطيع أن نقول
إن الأثينيين باتوا أصلح أمراً على يدى بيركلليس ،
أم هم على النقيض التام من ذلك قد فسدوا على

يديه ؟ أما أنا فقد سمعت بأذني أن بيركلليس قد
صير الأثينيين جفاة غلاظ الأكباد وصيرهم كسالى
ثرثارين وحبب إليهم الذهب والفضة منذ آجرهم
على السياسة .

كالليكلس : إنك تصغى يا سقراط لخصومنا .

سقراط : وإنما هنالك شيء لم أسمعه وإنما شهدته بعيني
وشهدته أنت كذلك ، ذلك بأن بيركلليس استمتع
بسمعة طيبة في مستهل حياته ولم يرمه الأثينيون
بتهمة مشينة يوم كانوا أقل صلاحاً في حياتهم ،
فلما صيرهم خيرين جميلين اتهمه الأثينيون في آخر
حياته بالسرقة وأوشكوا أن يقتلوه وحكموا عليه كما
يحكمون على أشرار الناس .

كالليكلس : وما معنى ذلك ؟ أفي ذلك ما يشين بيركلليس ؟

سقراط : لا شك أن سائق الحمير والحيل والبقر إن هو إلا
راع سيئ إذا ساق حميراً . لا ترفس وبقرأ لا ينطح
وخيلاً لا تعض فأفسدها حتى استوحشت فرفست
وعضت ونطحت من يسوقها .. أو لا ترى أن
حارس الأنعام كائنة ما كانت إنما هو شر حارس
إذا تولى هذه الأنعام فتركها أحسن جانباً مستوحشة

غير ذلول ؟

كالليكلس : فليكن ذلك مرضاة لك

سقراط : فالسياسى الصالح إن هو إلا رجل عادل يرد قومه

عادلين ، والعادلون رحماء رفقاء لينون كما يقول

« هومير » وأما الظالمون فهم قساة جفاة مستوحشون ،

وكانت تلك خلال الأثينيين تحت بيركلليس ،

ومن أجل ذلك لم يكن بيركلليس سياسياً صالحاً

فاضلاً لأنه لم يبذر فى نفوس أهله العدل والرفق

والرحمة ، وأما سيمون فقد نفاه الأثينيون عشرة أعوام

ونفوا « تيموستو كليس » وكادوا يرمون « متريدات »

من شاهق

.....

ولا ينكر سقراط الفضل كله على هؤلاء الحكام

الذين قدموا لأمتهم خيراً مادياً كثيراً لا يستطيعه

معاصروه فى شىء .

كالليكلس : ولكن هيهات يا سقراط أن يصنع أحد من حكام

زماننا شيئاً كالذى فعله واحد من أولئك السالفين .

سقراط : يا عزيزى كالليكلس إنى لا ألوم ما أسدى هؤلاء

السالفون من نفع لأمتهم ، بل ترانى أعدهم خيراً

لأمتهم من حكام هذا الزمان وأراهم أقدر على أن يزودوا المدينة بما تريد، ولكن إرضاء شهوات المدينة كان غاية أولئك وهؤلاء، أما تقويم هذه الشهوات بالإقناع مرة وبالإكراه مرة أخرى وحمل بنى وطنهم على أن يكونوا خيرين فاضلين فذلك ما لم يفعله الأولون والآخرون، مع أن ذلك وحده هو عمل السياسى الصالح. ولست أنكر على السالفين أنهم كانوا أقدر من حكام زماننا على أن يجعلوا لأمتهم أسطولا وأسواراً ومصانع للسفن.

* * *

فالحاكم لا يكون حاكماً حقاً وصدقاً حتى يحكم أمته بخير أمته، كالراعى الصالح الذى يسهر على صالح رعيته، ولا ينال الحمد حتى يكون أسوة صالحة للعدل والخير وحتى يكون كالوالد المؤدب الذى يؤدبها بأدب الصالحين، فيكبح شهواتها إذا جمحت ولا يبسط لها فى العبث واللذات. وقد عاصر سقراط حكاماً لم يحكموا زمام السياسة، كانوا يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم، ويمنون الأمة الأمانى ويخدعونها بالثناء، حتى اختلط الأمر على الأثنيين. ورسالة الحاكم الصالح قد تجاوزت المنافع الاقتصادية إلى المنافع الخلقية، وهى على ذلك شبيهة فى عرضها وبسطها

على طريقة سقراط بتحذير لطايبى المجد من تلاميذ سقراط ،
وهى هجاء لاذع لأشباه « كليون » من حكام أثينا ، وهى بعدئذ
إصلاح للحياة السياسية من أصولها الأولى . ولو اتخذ الأثينيون
السياسة جداً لأشفق أكثر الحاكمين على أنفسهم من أمانة الحكم ،
وخليت الحكومة لمن أوتى الحكمة والفضل فيهم ولن كان أسوة
طيبة للناس . وما جزاء الحاكم الصالح أن يغتال سعادة الأمة
مرضاة لنفسه ، وما جزاؤه إلا ما يكسب من مجد ومن شرف في
حكومة الناس كما يقول « أرسطو » ، فإن طمع في شىء بعد هذا
من متاع الحياة الدنيا فما هو بعادل ولكنه سلك سبيل الطغاة .

والذين أخذتهم سكرات الحكم من الأثينيين قد أغفلوا الحق
واتبعوا أهواءهم وضلوا ضلالاً بعيداً . فالحاكم عندهم يجب أن
يستأثر بنصيب الأسد من الأموال والثمرات فإن ذلك في زعمهم
سنة الطبيعة التي فطر الناس عليها . وقد ناصب سقراط هؤلاء
حرباً عنيفة لا رحمة فيها وغطاهم بهزوه وسخريته .

كالليكاس : إننى أعتقد أن العدالة الطبيعية قد أملت أن يحكم
القادر الضعيف ، وأن يحكم العالم الجاهل ، وإن
كانوا شركاء في أمر فاز العالم بنصيب أكبر من
نصيب الضعفاء والجاهلين .

سقراط : لَبِثْتُ قَلِيلاً فَمَا عَسَى أَنْ تَقُولَ الْآنَ ؟ فَهَبْنَا التَّقِينَا

جميعاً في مكان كما نلتقي اليوم ، وكنا كثيرين
 عدداً وتوفر لجماعتنا طعام كثير وشراب كثير ،
 وكان ذلك شركة بيننا جميعاً ولم نكن سواء في قوتنا
 وكان فينا الضعيف والقوى ، وكان بيننا طيب
 وهو أعلمنا بهذا الأمر ، ولكنه كان بطبيعة الحال
 أقوى جسداً من بعضنا وأضعف جسداً من بعضنا
 الآخر ، وهو أعلمنا جميعاً بالطب . أفلا ترى أن
 نعلمه أصلحنا وأقوانا ؟

كالليكلس : لا شك في ذلك .

سقراط : فهل ينبغي له أن يختص نفسه بنصيب أكبر منا في
 الطعام والشراب لأنه أصلحنا في الطب ، أم عليه
 وهو حاكمنا أن يقسم بيننا الطعام والشراب بالعدل
 ولا يستأثر بقسط أكبر من حاجة جسمه إن أراد
 ألا يشكوتخمة . وعلى ذلك فسيكون نصيبه أصغر
 من نصيب بعضنا وأكبر من نصيب بعضنا بحسب
 حاجته . فإن حدث أن كان ذلك الطيب أضعفنا
 جسماً كان نصيب أصلحنا وأعلمنا وحاكمنا أقل
 نصيب في الجماعة . أو ليس كذلك أيها العزيز ؟
 كالليكلس : إنك لا تكف عن الحديث عن الطعام والشراب

والأساة والثروة الفارغة وأنا لا أكلمك عن هذه
الصغائر .

سقراط : ولكن ذلك الذى تسميه « الأصالح » أو ليس هو
أعلم الناس ؟

كالليكلس : بلى !

سقراط : وهل يجب أن تختص ذلك الأصالح بأكبر نصيب
من المال العام ؟

كالليكلس : ولكنى لا أقول فى الطعام ولا فى الشراب .

سقراط : إنى أرى ولعلك تريد الثياب ، وينبغى بعد ذلك
أن يلبس أعلم الناس بالنسيج أكبر ثوب فى الدنيا ،
وأن يمضى فى الأسواق ملبعا بأجمل الثياب وأكثرها .

كالليكلس : ولكن ما لك وللثياب ؟

سقراط : ولا شك فى أن أعلم الناس بصناعة النعال يجب أن
يكون أغنى الناس فى النعال ، وعلى ذلك ينبغى أن
يتنزه الإسكافى فى المدينة منتغلا بأكبر النعال .

كالليكلس : ما هذه النعال ؟ إنك تهذى .

سقراط : فإذا كنت لا تتحدث عن هذه الأشياء فلعلك
تريد شيئا كالزراعة ، ولعلك تريد أن أعلمنا بالزراعة
يجب أن يستأثر بأكبر مقدار من البذور ليبندها فى

أرضه الخاصة .

كالليكلس : إنك تبدى وتعيد في نفس الشيء يا سقراط .

سقراط : إننى أبدى وأعيد في نفس الموضوع .

كالليكلس : ولكن بحق الآلهة إنك لا تفتأ تعبت بذكر الإسكافي والطبيب والطباخ كأنما نتحدث عن أشباه هؤلاء .

.....

.....

* * *

١) ولو أن سقراط قد قنع بأن يسخر من حكومة زمانه ، وبأن يعارض مذهب الحاكمين بمذهبه ، وأن يجادلهم بمنطق صارم شديد ، ما تيسر لسقراط أن يكتسب الأنصار من تلاميذه ، وكان أشبه شيء بمعارض سياسى وكفى . ولكن سقراط كان معلما ينزل من أنفوس خصومه وسامعيه إلى موطن العلة التي تشكو منها بلاده ويشكو منها الأفراد في حياتهم العامة والخاصة . فهو يريد أن يعالج نفوس الناس لأن النفوس أمانة بما نأتى من خير ومن سوء . والذي يستطيع أن يهدب النفوس بالتعفف والعدل وحب الجمال والخير يستطيع أن يكفل ثمرات طيبة في أعمال الناس . وكان سقراط يعلم الروح لقصدين : أحدهما أن يعيش الفرد في وئام وانسجام مع نفسه ، والآخر أن تسعد المدينة

بحكامها الرحماء المعقولين وتعيش في وئام وانسجام مع أهواء معقولة
 منسجمة ، ويريد سقراط أن يغير ما بنفوس قومه ليردهم عادلين .
 وقد كان بنفوسهم أن يعيشوا طلقاء من كل عقال وقيد ،
 وكانوا يؤمنون أن الجمال والعقل في طبيعة البشر أن نطلق العقال
 لأهوائنا ومطامعنا إلى غير حد ، وأن نحقق هذه الأهواء الجاحمة
 والمطامع العاتية بالإقدام والذكاء ونرضيها بسائر ما تشتهي .
 وكان بنفوسهم أن يتحرروا من كل قيد ، فلا تردعهم
 قناعة ولا تعفف . وكان بنفوسهم أن يستمتعوا بشهواتهم الجارفة
 ما أملت لهم نفوسهم المتاع . فالفضيلة والسعادة في رأيهم قائمتان
 في المتاع والحياة المترفة المطلقة من كل قيد ، وما عدا ذلك
 فأوضاع إنسانية ليست من طبيعة الإنسان في شيء . وما الحياة
 السعيدة إلا مطامع وشهوات لا يحجزها حجاز ، وما الفضيلة في
 زعمهم إلا أن نشبع هذه المطامع والشهوات بكافة السبل .

* * *

ويريد سقراط أن يقنع أولى الشهوات والأهواء أن يؤثروا
 القناعة بما في أيديهم على الطمع في ما في أيدي الناس ، وأن يعيشوا
 بنفوس عاقلة مطمئنة على أن يعيشوا بشهوات ليس لها من قرار ؛
 ويريد أن يعلمهم أن السعادة أن تطيب النفس بنظام لا اضطراب
 ولا اختلاط فيه ، فإن مواطن الشهوات في نفس الإنسان طبيعة

بطبيعتها متخبطة ذات اليمين وذات اليسار ولا تستقر على قرار .
 « ومن أجل ذلك شبهه أحد العارفين بالأساطير ولعله كان من
 أهل صقلية أو من أهل إيطاليا وكان رجلا أفا فكاهاة يلعب
 بالألفاظ . شبه موطن الشهوات في النفس « بالبرميل » ؛ لأن
 هذا الجزء من الروح طبع سهل الاقتناع ، وعد السفهاء غرباء
 عن أسرار الجمال ، وشبه موطن الشهوات في أنفس السفهاء ببرميل
 لا قعر له ، وذلك بأن نفوسهم لا تقتنع بشيء ولا تستقر على
 شيء ولا يماؤها شيء ... ويعلمنا أن هؤلاء السفهاء أشقى خلق
 الله في الدار الآخرة فهم لا يفتنون يحملون الماء في دلو مخروق إلى
 برميل مخروق . وشبه روح هؤلاء بدلو مخروق فهي روح مثقوبة
 لا تتمسك بالخير ولا بالجمال ، وهي جاهلة غافلة لا تحفظ
 الخير ولكنها تنساه . ولا ريب أن هذا تشبيه عجيب ، لأنه
 يصور ما أحب أن أقنعك به ما استطعت ، وما أحب أن أبينه
 لك إلا لتؤثر حياة راضية معتدلة قانعة بما تملك على حياة لا يروى
 غليلها شيء ولا تقنع بشيء »

وكذلك نبصر سقراط وهو يهوى إلى أفئدة الناس ليطهرها
 من فتنة الشهوات ويلقى في رحابها بذور الاعتدال والقناعة ،
 لأن الذين لا يعقلون نفوسهم عن شهوات لا تنتهى إنما يشقون
 وتشقى بهم أممهم ويسخرون لشهواتهم الضعفاء ، وذلك ظلم

تنقض منه سعادة المدينة .

عدالة القسمة

من يسير السفينة ؟ وما جزاء ربان السفينة ؟ في هذين الأمرين كل مصائر الدول ، وفي هذين الأمرين استنفدت عبقریات المصلحين من فلاسفة اليونان ؛ لأن في ذلك حياة السفينة إن أصاب أهلها خيراً وفيه بوارها إن أخطئوا سبيل الرشاد . ولم تكن هذه العدالة أمراً يسيراً .. وهي رغم رحمتها وعقلها منفرة لقلوب الذين يحكمون الناس عنوة والذين يستبيحون أموال الجماعة . وللقوة سكرة لا تصغى إلى العقل وتكره إن طغت كلمة العدل . ولا سبيل إلى معرفة نفس وما تخفى من قوى الخير والشر حتى تتولى حكومة الناس ، ولا ينجو من كبرياء سكرتها إلا من حمل قلباً قويا لا يسكره الجاه والسلطان .

* * *

والأمر عند فلاسفة اليونان أن تلقى مقاليد الحكم للأصلح وهم ينزعون في حكومتهم الحرة إلى ارستقراطية قائمة على أقدار الصالحين فلو أن عاصفة عصفت بالسفينة وهددت كيانها فليس لها من عاصم إلا أن تهرع لأصلح الركب على قيادتها ، ولا يسألون يوماً إن كان فقيراً أو غنياً . وأقدر الناس أحق الناس بالحكومة ،

ومن أجل ذلك وقف فلاسفتهم أعمارهم على تعليم الناشئين ، ليلبغ
أبناء المدينة أقداراً ساميةً صالحةً تيسر لهم إن تولوا مقاليد الأمور
أن يتولوها صالحين . والحاكم حارس للعدل والمساواة ، وهو حارس
لشرف المدينة وسعادتها ، وهو حارس وراع ولا ينال الراعي
والحارس من حمد إن انقلبت الرعية على يديه هزيمة قليلة .
واتخذ هؤلاء الفلاسفة المعلمون أسوة طيبة في أبطال أثينا الأولين
الذين درءوا عن أمتهم جنود الفرس في « مراتون » و « سلامين » ،
وهم يريدون حاكماً عادلاً لا يرائي بقدره وعدله ، ولا يحرص على
شيء أكبر من أن يشرب قلوب الناس بالعدل . وكان مثلهم
في ذلك « أرسيد » العادل ، وكان وفياً كبيراً على جاه الدنيا
ولا يحرص على زخرفها في شيء ، فقد عاش ومات فقيراً ، ولكنه
مكث درة في جبين المدنية اليونانية . شهد المسرح ذات نهار فلما
تلا الممثل أبيات « أشيل » إنه لم يرائي الناس بعدله ولكنه كان
عدلاً حقاً وصدقاً ، في قلبه منبت خصب ينبت الحكمة أبداً
وسداد الرأي أبداً . فالتفت الناس أجمعهم إلى « أرسيد » .

* * *

وليس من الصالح العام أن يتولى مصائر الناس أعجزهم ،
وليس من طبيعة الأشياء أن يكون هادي الطريق جاهلاً بالطريق .
وقد أملت سنة الطبيعة والعقل أن ينهض بالحكومة الصالحون

المصلحون ، وعلى ذلك فلم يقلع الفلاسفة مبشرين ومنذرين عن
 ذلك المبدأ الطبيعي ، وهو أن الفروض والتكاليف في حكومة
 ما يجب أن تلتقي في أعناق القادرين الصالحين . وليس في الأمر
 من خلاف في الطبيعة ولا في المنطق سوى أن القيم الصالحة
 والأقدار الصادقة لا تكسب هونا ما ، وفي هذا الأمر وحده كل
 مصير الأمة وكل دين الأمة وكل أمل الأمة . والأمة الصالحة
 الرشيدة تحرص على أقدار بنيتها على سواء ومهما أنفقت في بناء هذه
 الأقدار فليست تنال إلا خيراً ، وسيرتد حرصها قوة لها وسعادة .
 في الزمن الصالح السعيد من حياة أثينا كان الأثينيون يقومون
 لأمتهم قيامهم للصلاة ، وإذا دعت أبناءها لرأي جامع أقبل
 الفلاحون سعياً تحت جناح الليل جماعات في أيماهم مساوقهم
 وعلى أذرعهم عباءاتهم ، وينشدون على الطريق نشيداً قومياً قديماً
 وينتظرون مجلس الأمة منذ مطلع الفجر ولا يسألون على ما يفعلون
 إحساناً . ويحمل كل امرئ طعامه زيتونة وبصلة — كما يقول
 « أريستوفان » — كل يقدرس أمته أكبر مما يقدرس أمه وأباه .
 والذين آمنوا بهذا الحب أنفقوا محياهم ومماتهم لهذا الوطن وحرصوا
 على ألا يفوتهم في البأس والقوة من عسى أن ينقلب عليهم عدوا
 من بلد عدو . وليس من السياسة إذا يسرت للناس أممهم السبيل
 أن يقنعوا بالهين اليسير من الأقدار ، فإن قيمة كل أمة فيما

تجمع من أقدار قومها .

ولا بد للسفينة من قائد مطاع تتجمع حوله أفئدة الركب جميعاً ، ولن يتبعوه خالصين مخلصين حتى يؤمنوا بما لديه من قدر ، وحتى يعلموا أنه فوق أقدارهم . ولا يكفي ربان السفينة أن يعلو في الركب وحدهم كما تسلم السفينة ، ولكنه ينبغي أن يكون أكفأ وأصلح وأقدر من كل قائد عدو قد يعترض لسفينته بسوء ، فإذا تجمعت هذه الأقدار لأمة إذا مات منها سيد قام سيد ، أوتيت حظاً من العزة ونشرت السعادة في نفوس أفرادها أجمعين . ولقد استبقت المدن القديمة أيها يكون أعلى قدراً ، كل بما أبدعت عبقريته .

وكما تنهض المدينة بالعدل في قسمة الحقوق والتكاليف تنهار المدن بالتفريط في رعاية هذا العدل . والعجب أن يكون أدنى تفريط من الأفراد في الإيمان بالفضائل كأدنى تفريط من الحكومات في القيام على الفضائل ... كل هادم للسعادة والمجد ، ونصيب كل امرئ مهما صغر قوة إن صلح ووهن إن فسد . ولا يتولى مصالح الأمة إلا القادرون الأكفاء ، ولكن هذه الكفاءة لا تكون في سائر الحكومات على هيئة واحدة « فالحكومة الارستقراطية تقسم الفروض والتكاليف على ذوى القيم السامية » وحكومة الأغنياء تجعل ذلك الحق لذوى الأنساب والثراء ،

والحكومة الديمقراطية تقسم هذه التكاليف على الناس على سواء
كما يقول « أرسطو » .

ومهما اختلفت هذه الأسماء فإن القيم الإنسانية التي تعيش
بها الجماعة هي الأساس الذي تركز عليه كل واحدة من هذه
الحكومات . فالحكومة الأرستقراطية لا تصلح إلا بالفضيلة ،
والحكومة الديمقراطية لا تصلح إلا بالفضيلة ، وكذلك حكومة
الأغنياء لا تصلح إلا بالفضيلة . ونريد أن نفسر كلمة الفضيلة
كما فسرها « مونتسكييه » من قبل ، فليست هي الفضيلة المسيحية
كما يقول ، وإنما هي كل ما يكمل الرجولة من خلال ، وهي
الشجاعة والحكمة والعفاف والعلم . والذين يبلغون منازل الكمال
في هذه الفضيلة ثم يديرون مصائر أمتهم يستطيعون أن يبسطوا
في رحابها العدل ، وكل نظام يخلق الكملة من الرجال ليتولوا
قيادة المدينة فهو نظام أرستقراطي مهما اختلفت الأسماء ،
فكيف تتبدل حسنات هذه الحكومة سيئات ؟ والأمر جلي يوم
يأتي قيم رجالها وهم من ناحية من النواحي . أساس هذا البناء هو
الفضيلة ، وعلى قدر ما تتهاون أمة في هذه الفضيلة يصيبها الإعياء
فالدمار ، وهذا المرض درجات وحسب أمة أن تسأم تكاليف هذه
الفضيلة حتى تستبق إليها جراثيم المرض . فلو أن أمة أرستقراطية
قائمة على قيم الأفضالين قد زاوجت بين الزوجين على غير موعد

كما يقول سقراط جاءا بذرية ضعفاء لا حظ لهم من القوة ، ثم
يختار آباؤهم أصلحهم لحكومة الناس وما هم بصالحين . فإن
تقلدوا مناصب الأولين « حكمونا مفرطين وهم حراسنا ، ولا يحفلون
بغذاء الأرواح من الآداب والفنون واستحبوا رياضة الأجسام .
وبهذا يكون حكامنا المحدثون أقل أدباً وتهذيباً من آباؤهم ، ويختلط
الأمر بعدئذ بين طائفتين من الحاكمين ، بقية من الأولين
الصالحين ، وطرف من المحدثين الضعفاء . فإن حدث ذلك
نهض الحلف والشقاق وأتت على آثارهما الحرب والعداوة ، فإذا
انصدع الوئام في المدينة أقبل جيل جديد على الكسب وامتلاك
الأرض والبيوت ، وعف عنها الجيل القديم لا عن فقر لأن الله
أودعه غنى أبدياً وهو الفضيلة . ثم وقع بأسهم بينهم واستنفد كل
فريق بأسه في نضال ونزاع ، ثم أتى كلاهما إلى حل وسط فاقتما
الأرض والبيوت . ثم إن حكامنا الذين كانوا من قبل حراساً
ورعاة لقومهم ، والذين كانوا يعدون قومهم أصدقاء أحراراً
ويعدونهم أولى نعمتهم ، هؤلاء ينقلبون بعد ذلك طغاة باغين
ويعدون قومهم عبيداً وخداماً .

وتتضاءل آثار الفضيلة في أنفس المدينة ، وينقرض صداها
شيئاً فشيئاً كلما تبددت قوة حزب الأفضلين ، وتبدو كأنها أثر
بال للناشئين ، ويأخذ حب المال عليهم كل سبيل ويعشقون

الأموال كما يعشقها من يعيشون تحت حكومة لأغنياء ، ويعبدون الذهب والفضة ويتخذون خزائن وكنوزاً في بيوتهم ليخبثوا فيها أموالهم ، ويحيطون بيوتهم بسياج كأنها وكر الطير ، وينفقون ما لهم على النساء وما يحبون من متاع . . .

حكومة النصاب

ولا يلبث حب المال أن يطغى ويُمجّد أولو الثراء لثرائهم ويكون لهم الأمر كله في المدينة وتُسمى سياسة الدولة وقيادتها للذين يملكون نصاباً معلوماً من المال ، ومن لم يملك أدنى النصاب فليس له من الأمر من شيء . وهذه الحكومة إن فسدت فسدت من ناحيتين : يوم يستمسك أولو الأموال بالأموال من دون الفضيلة ، فيتولى قيادة السفينة الجاهلون ويقصى عن قيادتها الفقراء ولو كانوا أعلم الناس بسياستها ، وهي حكومة فاسدة من ناحية أخرى لأنها تجمع مدينتين في مدينة واحدة : مدينة الأغنياء ومدينة الفقراء ويكون بعضهم ، لبعض عدواً ، ولا تلبث العداوة أن تنقلب حرباً على المدينة جميعاً . وهذه الحكومة لا تستقر من قلق ولا تنقِم على حال ، كلما جاءتها حرب خرج إليها الأغنياء والفقراء جميعاً . ويومئذ يشهد الفقراء أن الأغنياء الذين نشئوا في ظلال المال لا يطبقون حر الحرب ويتصببون عرقاً ويلهثون من الجهد ،

وحينئذ يقول الفقراء هؤلاء لم يجمعوا ثراءهم إلا من غفلتنا . ولا يلقى الفقراء سلاحهم حتى ينالوا نصيباً في سياسة المدينة ويقسم عليهم نصيب من الأرض وتخفف عنهم أثقال الديون .

الحكومة الديمقراطية

فإذا سارت الأشياء سيرة طبيعية لم تقف مطامع الفقراء عند حد ، ولا يقنعون بشيء من دون المساواة ، ويومئذ تكون الحكومة للناس جميعاً على السواء . وهذه المساواة في الحقوق قد تكون إحدى غايات العدالة الطبيعية ، إلا أن الأمر لا يستقيم إذا خيلنا مقاليد الحكومة للصالح والمفسد على السواء فلا تستوى الحسنة والسيئة . والحكومة الديمقراطية أحوج الحكومات للفضيلة ، لأنها لا توصل ثنايا المجد على أحد ، إلا أنها لا تصلح إلا بما تصلح به الأرستقراطية الحققة ، أى بقيم الصالحين لا بد لها من الفضيلة ، ولا بد لها من حب الوطن ومن التعطش للمجد الحق ، وإنكار الذات وبذل كل عزيز ، ودأب لا ينقطع إلى الكمال ، وخلق عادل عف شجاع وإيمان راسخ . وهذه الفضيلة ليست هينة يسيرة ومن أتاها كان أهلاً لأن يتقلد زمام المدينة . والحكومة الديمقراطية الصالحة تختار من تختار عن رشد وتعرف أقدار الصالحين وتعرف كيف تجزى المحسنين بإحسانهم ، وهى سيدة فى اختيارها

وهي طيبة بعد ذلك للحاكمين . والحاكمون لا يبتغون شيئاً فوق
مجد أمتهم . يوم تفسد قيم الحاكمين والمحكومين في حكومة
ديمقراطية ترى نظاماً يغري الجاهلين فيه ما تشتهى كل نفس
من سبقت يده إلى مال الدولة فهو له ، وكفى بالحاكمين قدراً
أن يشتهوا بظاهر القيم وأن يقفوا للخيرين كل مرصد ، ثم يحتل
الفساد قلوب الناشئين كما يحتل العدو معقلاً ، إذا لم يجدها عامرة
بالعلم والمبادئ الصادقة السامية وإذا ألفاها خالية من هذه القيم
التي يعصم الله بها أفئدة أجياله كما يقول سقراط . ثم يستبق
الأفتراء والادعاء أيهما ينزل منازل الصدق والجميل والمعرفة في
نفوس الناشئين ، حتى إذا امتنعا بهذا المعقل غلقا أبوابه
كأن لا يدخل عليهما داخل ، ثم لا يقبلان نصيح الشيوخ
العالمين ويستبدان بالأمر ، ولا يرعيان للحياة حرمة بل يطرحانه
بمجزر الكلب ، ويسميان التعقل جبناً فينتزعانه مهيناً ، ويعدان
الاعتدال والاقتصاد في الإنفاق من شيم العبيد ، حتى إذا انتزعا
من أنفس الناشئين كل خير وطهرها من آثار الفضيلة آوى
إليها الفجور والفوضى والإسراف والتفوق ونرى الافتراء والادعاء
يتوجان هذه الرذائل ويزفانها في حفل كبير وينشدان مديحها
ويضيفان عليها كل نعت محبوب ويسميان الفجور أدباً والفوضى
حرية والإسراف فخامة والوقاحة شجاعة . ولو أن الحكومة قامت

على عمد من الرذيلة ، فليس يفجؤها إلا أن ينجر عليها السقف
 من فوقها أو تكون فريسة للطامعين . وإذا لم تمتد إليها يد العدوان
 من بلد غريب جاءها العدوان من أشد أبنائها كفرأ وفجوراً ،
 فنهض فيها طاغية يحكم فيها بأمره ، ولا خير في العيش في ظلال
 الذل فلن يجتمع العدل والذل جميعاً . وكيف تلقى العدل في بلد
 يتهدم فيه كيان العزة والكرامة الإنسانية من كل فج ؟ وما تكون
 الأقدار إذا هدمت أفئدة وسلبت آمال ، وحرمت الكرامة على
 الناس لا يباح لهم إلا ما يباح للعبيد من معرفة وقدر ؟ وتسخر أمة
 لأمة وتمتص أمة دماء أمة وتستنزف نعيم الحياة فيها حتى تن بين
 أحزان الأسى وأثقال الفقر والإعياء ، وتثمر ما تثمر وهي مريضة
 حسبة للقاهرين ، وما على القاهرين إلا أن يهدموا حياة المغلوب
 من منابها ، فإذا دخلوا على الأحرار الذين لا يصبرون على ضيم
 أخذوا البرىء بالمدنّب والمحسن بالمسئء والقائم بالظاعن ، حتى
 يلتقى الرجل منهم أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد . وأما أن
 يقيموا في ديار المغلوب بجندهم يسلطون العذاب على كل نفس
 فلا ينجى الصالحين سوى الموت أو الخروج من ديارهم ، وأما
 أن يختاروا في البلد المغلوب ذرية المغلوبين يرضعونهم بلبانهم
 ويشربونهم حبههم ويغدقون عليهم ثمرات الحياة حتى ينصروهم
 على أمتهم وحتى يخلبوا البقرة حتى يدمى ضرعها ، ومن وراء ذلك

سياسة تفعل ما لا يفعل السيف فلا تهدم الأجسام وحدها وإنما
تنتشر في الظلام إلى الأرواح فتهلكها .

حكومة الطغاة

وأما حكومة الفرد المستبد فقد أتت في أثينا على آثار مرض في
الديموقراطية يوم آست الديموقراطية في الأقدار بين العاجزين
والقادرين ورضيت بالقيم الظاهرة الكاذبة ، ويوم نزلت بها علة
هي آفة الديموقراطية يوم لا يكون للحاكمين والمحكومين مأرب
أبعد من شهوات أنفسهم ولا يعيشون للدولة وإنما تعيش الدولة
لشهواتهم ، وتنسى فيها الفضيلتان اللتان يقوم عليهما بناء كل
ديمقراطية صالحة وهما الحرص على أقدار الصالحين والإيمان بأن
هذه الأقدار للجماعة لا لشهوة الأفراد ، ويوم يتخذ هؤلاء الأمة
نهباً يصيحون في حجزاته . وقد يهض جناح الديموقراطية إذا
أسرفت الديموقراطية على نفسها في الحرية حتى تفقد الحرية
فضيلتها فلا تحرص على أحد من رجالها ويلقى الحبل على الغارب
للناس يختارون ما يشاءون ويذهبون من الحياة في كل مذهب
وتخال الحاكم محكوماً وتحسب المحكوم حاكماً وترخص القيم على
الناس وتسوى الأقدار أمام القانون ويختار الحاكمون بالاقتراع
أو ما يشبه الاقتراع مما لا يميز الخبيث من الطيب ويومئذ لا ينبغ

فيها إلا كل آثم كاذب فاجر تعمييه شهوات الحكم عن كل خير
ويرتكب في سبيل الحكم كل إثم وينفق كل بلاء في تحطيم من
من يعوقه عن بلوغ الحكم . ولكي نتبين الأمر عن جلاء نأخذ
فيه بحديث سقراط :

سقراط : هب أن الديمقراطية بنيت على ثلاث طبقات كما
هو الواقع : الطبقة الأولى طبقة الطغام ، وقد
جاءت هذه الطبقة من الإسراف في الحرية وليست
أدنى عدداً من فقراء حكومة الأغنياء .
: هذا حق .

سقراط : ولكن هذه الطبقة أشد بأساً وعنفاً في حكومة
الديمقراطية منها في حكومة الأغنياء .
: وكيف كان ذلك ؟

سقراط : لأنها لا قدر لها في حكومة الأغنياء ، وهي هنالك
بمعزل عن الحكم هينة لا أثر لها ، أما في
الديمقراطية فلها الأمر كله إلا قليلاً . وهي أشد
عنفاً وصخباً في القول والفعل ، وهي تجلس من
حول منبر الخطابة تزجر وتكلم أفواه المعارضين .
وهكذا تقضى سائر الأمور إلا قليلاً بيد الطغام .
والطبقة الثانية دبرت مالها فحفظته ، وهي طعمة

تطعمها حكومة الطغام بما تفرض على أموال الأغنياء
 من ضرائب لا يراد بها الصالح العام وإنما يقسمها
 قادة الطغام على الطغام ويخرجون منها أنفسهم
 بنصيب الأسد . والطبقة الثالثة طبقة الصناع
 والعمال وهؤلاء لا يقبلون على السياسة إلا بأجر ،
 وعلى قادة الطغام أن يجلبوا رضاهم بمال الدولة .

* * *

فإذا ساءت الحرية فانتهدت إلى هذا الشقاق عادت السبيل
 لمطامع الطامعين ، واجتنب السياسة أولو الفضل حتى لا يصيبهم
 نضال الغاشمين ، ويمسى كل شيء في يمين الطغام ، ويمسى
 الطغام في يمين الخطباء ، وهؤلاء إن آنسوا من أنفسهم عجزاً
 جردوا الخطابة من الفضيلة فجعلوا الصدق كذباً والكذب
 صدقاً ، والخطابة يومئذ أداة هدم ، ويومئذ يدوس ذوو الأطماع
 الفضيلة وينقضون يسرون الطغام وينصبون أنفسهم حراساً
 للطغام ويعدونهم ويمنونهم فيطيعهم الطغام ويفدونهم بالنفس
 ويمنعونهم من كل إثم .

فكيف ينقلب طاغية من كان بالأمس حامياً للطغام ؟ إنه
 لم يحام عن حق ولم ينصب حياته للصالح العام ، وإنما اتخذ
 حماية الطغام سلماً يتسلق عليه إلى ما أرب شخصية ، حتى إذا

بلغ مأربه زاده السلطان عتوا وطغياناً ، وتراه أول الأمر بساماً
 يفشى السلام على من يلتقى ، وينفى عن نفسه شبهات الطغيان ،
 ويمنى الناس جميع الأمانى فى الحاضر والعام ، ويعدهم بأن
 يخفف الدين عن المدين ، ويوزع الأرض على الفقير وعلى
 أنصاره وسائر الناس . فإذا فرغ من نضال أعدائه الخارجين
 فهادن طائفة وأهلك أخرى ، وخلا له الجو من هؤلاء ، وأشعل
 نار الحرب حتى لا يستغنى الطعام عن قائدهم أثقل الناس
 بالضرائب حتى لا يفيقوا من فقرهم وحتى يشغلهم معاشهم عن
 أن يتأمروا عليه ، فإذا آنس من بعضهم حرية واستقلالاً
 أرسلهم وقوداً للحرب . وقد يكون من أعوانه صرحاء ينتقدون
 ما يرون من فساد جهراً وبالغيب ، وهؤلاء أشجع الناس فلا بد
 للطاغى من أن يببدهم إن أراد الحكم ، حتى لا يبقى فى المدينة
 أحد له قدر . ويجب أن يصب عينيه على كل شجاع وكل
 عزيز وكل حكيم وكل غنى ويقاتلهم وينصب لهم الفخاخ
 حتى يطهر المدينة منهم . وهو يفعل ما يناقض أطباء الأجسام ،
 فهؤلاء لا يبترون إلا الفاسد من الأعضاء ، ولكن الطغاة يبترون
 الصالحين فى المدينة . ثم إن الطغيان يجر الطغيان ، ومن أكل
 أكباد البشر مرة انقلب ذئباً ، واتخذ بطانة من العبيد الطبع ،
 ولا ينفك عن البغى حتى يقتل أمه وأباه ؛ فلا ريب أنه يعيش

من مال أبيه هو وضيوفه ورفاقه ورفيقاته ، وأن الشعب هو
الذى ولد الطاغية وعليه أن يطيقه هو وأصحابه ، فإن لم يصبر عليه
سخط وجاهر أنه ليس من العدل أن يعيش ولد في عنفوان الشباب
من مال أبويه وإنما ينبغي أن يعيش الأب من مال ابنه ، وأنه
لم يلد ووينشئه ليكون عالة عليه هو وعبيده ومن يلوذ به ممن هب
ودب من الأعراب ، وإنما اختاره ليحرر الشعب من الأغنياء
ومن يسمون الأشراف الطيبين في المدينة . فإذا سخط الشعب
أمر هذا الطاغية أن يبرح المدينة هو ورفاقه كالأب الذى
يطرد من الدار الابن وضيوفه الفاسدين . ولا ريب أن الشعب
يعترف إذن أنه وهو شيخ ضعيف يطارد رجالا أشداء لا قبل
له بهم ، ولا ريب أن الطاغية يأخذ أباه أخذاً شديداً ، وإن
لم يسمع ويطع لطمه بعد ما يجرده من السلاح . فالطاغية قاتل
أبويه وهو بئس الابن لشيخوخة أبيه . والأمة التى تسرف على
نفسها فى الإباحة وتحمل على أعناقها طاغية تهوى إلى شر
العبودية وترسف مقيدة فى أغلال العبيد من بطانة الطاغية .

* * *

إننا قد تابعنا بعض صور المرض الذى ينتاب كل نظام
والعلة واحدة مهما اختلفت أسماء الحكومات . من أغفلت قيم
بنيها شبوا عاجزين فى أى نظام كان ، ولا يغنى المال ولا الحرية

ولا السلطان عن الأقدار شيئاً . وحيثما نجحت أمة في بناء قيم
أبنائها الكفيلة وعاش هؤلاء لأمتهم وللصالح العام نستطيع أن
نجد معالم العدل ؛ وفي ظلال العدل تنمو سعادة الأفراد ،
ومن أجل هذه الفضيلة عاش ومات سقراط .

إيمان سقراط

وآمن سقراط بالعدالة إيماناً روحياً زاسخاً لم يكلف به إلا نفسه ، وعجبوا أن رأوا رجلاً يبشر أن المظلوم أسعد من الظالم . وهو يكره أن يكون ظالماً أو مظلوماً لكنه يرى رغم ما يقع تحت ظاهر الحس أن محتمل الظلم أسعد قلباً من مقترف الظلم . ويسمعه الذين يريدون المجد عنوة فلا يكادون يعقلون حديثاً . كيف وإن ينصتوا من حولهم يسمعون عامة الناس تمجد الأقوياء وإن كانوا ظالمين ، ثم هم يستمعون لسقراط وهو مغرب في قول لم يتهم من قبل . وفي هذه الناحية تجاوز سقراط آفاق المعلم السياسي الذي رأى عوجاً فقومه ، ودخل سقراط بعد ذلك الحد في عداد الأنبياء . وقد ذهب كثير من المؤرخين إلى الجمع بين سقراط وبين المسيح في دعاهما إلى الخير الأعلى والصدق الأعلى ، ولم يحجب سقراط عن هذا العالم مطمع ولا دنيا ، ومضى يطبع داعي الصدق والحق ، وما كان سقراط ليحفل في سبيل الحق بأهواء الأثنيين ، ولم يكن سقراط ليخاف في سبيل الحق مقت الأثنيين ، فهو يريد أن يجاهدكم كما ينقلبوا

خيرين وصالحين ، ويريد أن يؤسيهم كما يؤسى الطبيب مرضاه ،
ولا ينزل نفسه منازل السياسيين الذين يخاطبون الشعب بما يرضى
الشعب وهم لا يؤمنون بحق ولا بعدل : وقد سهر سقراط على
سعادة الأثينيين دون أن يعبأ بهم إن سخطوا وإن غضبوا وهو
يقول : « إننى أعتقد أنى واحد - وإن لم أقل إننى الأثنى
الوحيد - من الأثينيين القلائل الذين يتبعون فى أثينا فن السياسة
الحق ، وإننى الوحيد الذى يعمل بهذه السياسة فى زماننا ،
وإننى لم أقل قولاً لأحد مرضاة لأهوائه ، وإننى لا أريد إلا
الإصلاح ولا أبتغى لذة السامعين . ويعلم سقراط أن الأثينيين
قد لا يصبرون على قول الصدق الذى يفضح سوات الظالمين ،
وأن هؤلاء الظالمين قد يدفعونه ظلماً بين يدي القضاء ؛ وهو
يعلم أن الصدق مر على النفوس ، وأن الثناء جميل يغر النفوس ،
ولكن ذلك لم يمنع سقراط من أن يحتمى فى حمى الصدق وحده ،
ويريد أن يعيش صادقاً عادلاً وأن يموت عادلاً صادقاً وأن
يدخل بالعدل والصدق فى جزيرة السعداء عند الله . وهو يقول
إن مثلى إن حاكمه القضاء كمثل طبيب عرض على محكمة من
الأطفال و كان المتهم طباحاً ، ثم أنظر ما عسى أن يقول هذا
الطباح إذا نهض يتهمنى سيقول : يا أيها الأطفال إن هذا الرجل
قد أساء إليكم غير مرة ، فهو يشوه صغاركم بالبتر والنار

ويستقمهم ويخنقهم ويذيقهم مرّ الشراب ويكرههم على الجوع والظماً ويفعل نقيض ما أفعل ، فإنني أهيب لكم الطعام الهنيء والشراب المرء من كل صنف . فما يملك الطبيب في هذه المصيبة إن أراد أن يقول الحق ؟ فإن قال لهم أيها الأطفال إنني فعلت كل ما فعلت في سبيل صحتكم . ألا ترى أن تهيج المحكمة بصياح شديد ؟ وإنني أعلم أنه قد يصيبني ما يصيب هذا الطبيب إذا وقعت تحت طائلة القضاء فلن أباهي بما قدمت لهم من متاع ولذات وما تشتهي نفوسهم من حسنات ، مع أنني لا أحسد الذين يقدمون هذه اللذات ، ولا أحسد الذين يتقبلون هذه الحسنات ، فلو أن أحداً شكاني بما أفسد الشباب في زعمه ، وبما أضلهم في حوارى ، وشكاني بما ألوم الشيوخ وأحمل عليهم بلساني في مجامعهم الخاصة والعامة ، فلن أستطيع أن أقول الصدق وأن أقول لهم : إنني لم أقل إلا عدلاً أيها القضاة ، ولم أفعل ما فعلت إلا إبتغاء خيركم وصلاحكم . ولا ريب أنني ألقى منهم بعد ذلك حتفى .

— وعلى ذلك فإن سقراط لا يبالي بما قد يمسه من عذاب في سبيل الحق ، فقد آمن بعد هذه الفضيلة بالله ، وآمن بخلود الروح ، ويريد أن يطهر الروح من كل رجس وإثم ، لتقضى الحياة راضية مرضية ، ولتدخل بعد الموت في دار الصالحين

أما من حرص على سعادة الحياة فينبغي أن يطهر قلبه من الظلم والعدوان ، وأن يسارع إن ارتكب إثماً فيطهر قلبه تطهيراً ويعترف بإثمه وظلمه لدى القضاء ويتقبل ما يفرضه عليه القضاء من عقاب ، لأن الإنسان إذا حرص على سلامة جسمه عجل فشكى مرضه إلى الطبيب حتى لا يتفشى المرض من مستصغر الداء إلى سائر الجسم فيهلكه . ويتقبل المريض في سبيل سلامته كافة ما يمليه الطبيب ، وقد يكوى أو يبتز موطن الداء من جسمه ، وقد يحتمل في سبيل هذه السلامة الآلام والبلاء . وما باله حين يَأْثُمُ إثماً أو يرتكب ظلماً يحرص على كتمانه وعلى أن ينجو من العقاب ، مع أن للروح سلامة كسلامة الجسد ، ومن أقام على ظلم وإن صغر لا يعدم الظلم أن يجر ظلماً بعده ، ويتفشى في الروح جميعاً مرض يسد على النفس مسالك الجمال والخير فلا تحفظ في طويتها سوى المظالم ، والمظالم قبح و كل قبح عذاب ، ومن لا يعجل فيطهر قلبه من العدوان والظلم فجزأؤه أن يعيش في القبح وجزأؤه أن لا يطيب له ضمير بالخير والجمال . وكان سقراط يدين بهذا الدين ، ويؤثر أن يبيت مظلوماً على أن يبيت ظالماً ، فليس على المظلوم من إثم يطهره ، وإنما على الظالم أن يكفر عن ظلمه فيتقبل العقاب طوعاً كما يتقبل المريض الدواء . وكان سقراط يفجأ

عامة الناس بهذا الإيمان الذي لا يقوى عليه إلا الصالحون ،
 وما أكثر الناس ولو حرص سقراط بعادلين . فهم يجمعون
 ما لهم ويقيمون سلطانهم على أشلاء الضعفاء ، ويستمتعون
 باستدلال الضعفاء والعاجزين . وآمن سقراط بخلود الروح ،
 وذلك أن المعرفة ليست إلا ذكراً لعلم قديم حفظته الروح ، فهي
 بذلك كائنة قبل أن يكسوها جسم ، وهي كائنة بعد أن يبلى
 ذلك الجسم ، فتأوى الروح إلى حياة منعزلة عن الجسم ، فأما
 من عمل صالحاً وعاش تقياً عادلاً فإن روحه تدخل في جنة
 الصالحين ، وأما من عمل سوءاً فإن روحه تتردى في هاوية
 الجحيم قال سقراط لكاليكليس : « دعني أقص عليك حديثاً ،
 وقد تخاله أنت حديث خرافة إلا أنني أعده حقاً وصدقاً ،
 ولست بمحدثك فيما أقول إلا بالحق . قال هومير قد ورث ملك
 زيوس من بعده ابناه « بوسيدون » و « بلوتون » وأقسما بينهما
 ملك أبيهما وكانت في زمان « كرونوس » شريعة ما زالت قائمة
 في سنة الآلهة ، وهذه الشريعة تقضى أن من مات من البشر
 بعد حياة عادلة طيبة فجزاؤه أن يدخل جزر السعداء خالداً
 فيها لا يمسه سوء . وأما من عاش ظالماً كافراً بالله فجزاؤه أن
 يتردى في سجن يكفر فيه عن سيئاته وهذا السجن هو ما يسمونه
 الجحيم ، وقد كان الإنسان في بدء الزمان يحاسب حياً على

ما قدمت نفسه ، وكان الأحياء يعلمون متى يجيئهم الموت
 فيأتون لحسابهم بأجسامهم التي تخفي آثار أرواحهم . وتشابه
 الأمر على قضاتهم وأضلهم ما يتبع الأحياء من جاه وشهود
 يشهدون إنهم لصالحون ، ويدخلون بعد ذلك جزر السعداء مع
 العادلين ، وشكا حراس هذه الجزر ما وجدوا في الجنة من أنفس
 ظالمة تنعم بنعيم العادلين ، فأمر « زيوس » أن يخبأ عن الأحياء
 أجلهم فلا يعلم أحد متى تحين ساعته ، وأمر ألا يحاسب
 الإنسان قبل أن تنسلخ روحه عن جسده وتأتى الروح بمعالمها
 التي عاشت بها في الحياة ويرتسم فيها ما اقترفت من إثم . وحين
 يعرض أهل آسيا على القضاء يعرضون على « ردامانت » الذي
 يصفهم صفاً ويتفرس في أرواحهم دون أن يدري صاحب كل
 روح ، بل كثيراً ما يمسك بروح شاه الفرس أو من عداه من
 الملوك والأمراء فلا يصيب في أرواحهم صحة ولا سلامة ، بل
 يجدها مجرحة ممزقة بما حنثت بأيمانها وما جنت من ظلم ، وكلما
 اقترفوا ظلماً بقيت آثاره معلمة في أرواحهم ، وتزى أرواحهم ،
 معوجة من آثار الكذب والغرور وليس فيها شيء قويم لأنها
 تجافت في حياتها عن الحق ، فإن رأى روحاً قد امتلأت بالقبح
 من أثر الفوضى والحلاعة والتكبر والعجز عن ضبط النفس ،
 رمى بها غير ناظر لمكانتها إلى قرار الجحيم لتلقى هنالك جزاء وفاقاً

وقد ينزل « ردامنت » بهذه الأرواح عقاباً على قدر آثامها .
 ومن الأرواح من ترجى سلامها فلا تقيم في الجحيم إلا أجلاً
 معلوماً تكفر فيه عن إثمها وتتطهر فيه من رجسها ثم تدخل بعد
 ذلك في دار الصالحين ، ومن الأرواح مالا ترجى زكاتها بما
 اقترفت من آثام لا تتطهر فتمكث في الجحيم مثلاً للظالمين ،
 ولا تنس يا كالليكليس أن الحاكمين قد يكون فيهم الأشرار
 والآثمون ولا يمنع هؤلاء مانع أن يكون فيهم الأخيار الصالحون ،
 فإننا قد رأينا في الحاكمين أخياراً عادلين كانوا أهلاً لاحترامنا
 وإعجابنا ، فإنه من العسير باكالليكليس أن يحيا رجل حياة
 عادلة إذا أطلقت يده في المظالم من غير أن يحاسبه أحد ، وإن
 رأينا هذا الحاكم آتيناه حمدنا وثناءنا وقليل ما هؤلاء الرجال ،
 وأنا أعتقد أنهم قد وجدوا في بلادنا وفي بلاد أخرى وسيوجد
 من بعدهم رجال صالحون طيبون بسوسون بالعدل ما قد يلقي
 إليهم من الأمر . وقد كان أرسطيد المفرد العلم بين الإغريق
 جميعاً وكان وفياً عادلاً وقد حدثتك منذ حين أن « ردامنت »
 إن أمسك بروح من هؤلاء لا يعرف عنها شيئاً فلا يدري من
 صاحبها ولا من قومه ، ولا يعلم إلا أنها روح شرير فيرسلها إلى
 الجحيم معلمة بأثر يبين إن كانت تبرأ أو لا تبرأ من سوءها ،
 وحينئذ يلقي الظالم جزاء وفاقاً بما اقترف من إثم . وقد يرسل

« ردامنت » روحاً عاشت تقية نقية في صحبة الحق ، وسواء
 أكانت روح رجل من عامة الناس أم كانت روح رجل من طبقة
 أخرى . وإن رأى روح فيلسوف حكيم عاش فيما يعنيه ولا يوزع
 نفسه بين الأطماع والفتن أحبها وأمتع نفسه بجمالها وحسنها وأرسلها
 إلى جزر السعداء . وإنني يا كالليكليس مؤمن بهذا الحديث
 وأحرص على أن أقدم لحسابي روحاً طيبة سليمة تقية وأدع عنى
 ما يستمتع به أكثر الناس من آيات المجد وأقف حياتي على
 الحقيقة ، حتى أستطيع بهذا المذهب وحده أن أسعد في حياتي
 وفي مماتي ، وأن أكون خير ما أستطيع .

ولم يؤمن سقراط بخلود الروح إيماناً كما يمان العجائز وكني ،
 بل علم تلاميذه التقوى بإيمانه واقتناعه ، لا يفرط في الصلاة
 وكان مثلاً للصالحين ، وكانت لهم في سقراط أسوة صالحة .
 وكان يقنع تلاميذه بخلود الروح ما استطاع ، ولم يأخذوا عليه
 كذبة في شيء مما دعا إليه ، وهم يصحبونه يوم يموت فيشهدون
 في موته صدقاً فوق سائر ما دعا إليه ، فلم يمسه رهبق من خشية
 الموت وإنما تحدث إليهم بنفس مطمئنة راضية مستبشرة تبدى
 أطيب ما تحفظ ، كالطير المنذور « للأبولون » إذا شارف
 الموت شدا بأجمل صوته ، وهو يؤمن بالخلود عن بصيرة ، لأن
 الشيء يخرج من نقيضه ، كالصحو يأتي من النوم ، ويخرج

الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وليس الموت بنخاتم
 للحياة كما يبدو للذين لا يرون سوى الأجسام ، إنما الموت عند
 سقراط بدء حياة أخرى لا تشهدها الأبصار وتدر كها قلوب
 الصالحين ، فالروح تدع جسمها حين الموت ، وهى نفحة
 من نفحات الله لا تتبدل بتبدل الجسم ولا تشهدها الأبصار ،
 وترقى إلى عالم شبيه بها ، فإن عاشت تقية طاهرة آوت إلى عالم
 طاهر خالد عند إله حكيم فى جنة النعيم ، وتتجرد من الجهل
 والخوف ومن أهواء الجسم الموحشة ومن شرور الإنسان ، وتقر
 خالدة فى حياة النعم . وإن عاشت لا تتعلق بشيء سوى لذة
 الأجسام ، وتجافت عن طهارة القلب وتعلقت والهة بالجسم
 لا تنصرف عن لذات الدنيا ، فلا تريد شيئا سوى متعة الشراب
 والنساء ، وتكره الحكمة وما تدرك الحكمة من معانى الجمال والخير ،
 فهى ملوثة بذنوبها مثقلة بأهوائها مستمسكة بمتاع الأرض ،
 وهى ذات ثقل ثقيل لا يسمو إلى جوار الله وإنما تتخبط على
 على الأرض شقية بين مقابر الموتى وقد يبصر الناس أشباحها
 الموحشة . وقد آمن سقراط أنه سعيد بما عمل من صالح وأنه
 يلقى الله بقلب سليم .

موت سقراط

جاوز سقراط السبعين وجاوزت أثينا سعادتها فخسرت حرب
« البليونيز » (سنة ٤٠٤ قبل المسيح) وهيض جناحها وغالتهها
الغوائل وتقوضت عمدتها ووقع ما كان يحذر المصلحون ، وحققت
على ساسة أثينا كلمات سقراط واتسعت مسافة الخلف بين آمال
سقراط وأعمال الحاكمين وصار حديث الحكيم سوط عذاب
على نفوس العاجزين ، وهم يريدون أن ينسوا صوت الحق
ويستمتعوا بخلاقهم . وما ندرى ماذا أصاب الأثينيين فوق كلوم
الموت والهزيمة وحكومة الطغاة ، وما ندرى ما فعل سقراط بين
يدى هذه الأحداث . وما نحسب إلا أن القدر قد فاجأ الأثينيين
بقدر شديد أذل العزيز ، فاضطرب الميزان في حكم المدينة ،
وتريد طبيعة الأشياء ألا ينتهى الأبطال ، ولا تهوى البلاد العزيزة
كما تنتهى سائر الأشياء ، ولا يفسر موتها إلا بسر شبيهة بمعجزة
حياتها . والذين عاشوا لأمتهم ودرعوا عنها العوادي وعاشوا في
رحاب العزة والمجد ، استمسكوا بمصير أمتهم وجعلوا آجالهم
موقوفة بأجال فكرتهم ، كالربان الذى قاد سفينته للعزة والمجد

والذى يؤثر أن يهوى بها فى قرارة اليم على أن يسلمها للزمان فريسة
ذليلة هينة . ونرى أبطال روما الذين عاشوا لمجدها وحريتها يتبعون
مصير هذه الحرية يوم تتردى هزيمة ونرى ما يقول الشاعر
« لو كان » فى « بومبيه » صورة لأشغال الأبطال فى كل دهر
كالوالد الذى ثكل ولده الغالى فهو يشيعه إلى قبره ويوقد لدى
قبره شعلة الذكرى ويمكث لديه ما شاء الله أن يمكث وأنت
كذلك يا روما لن أنفض يدي منك قبل أن أحتضنك جثة
هامدة ، وأنت كذلك أيتها الحرية لن أقلع عن ذلك ولن أكف
عن ذكرك حتى ولو لم يبق منك إلا صيحة فى واد .

وقد شاء القدر أن يجمع بين مصير سقراط ومصير أثينا التى
عاش لعزتها ، وذلك تأويل مبهم لا نعرف سره إلا إبهاماً . وظاهر
الأمر أن فئة من الأثينيين قدمت سقراط للقضاء وعابته بإثمها
فاتهمت سقراط بما جنت يمينها . ولقد نفسر صمت سقراط فى
هذه المحاكمة باستعلاء الحزين الذى لا يجد كرامة للكلام والذى
سئم تكاليف الحياة بعد ما هوت السفينة التى عاش لها ، ولقد
نفسره بكبرياء الحق ، وهو على أى معنى من المعانى صمت
جميل أكرم من كل قول . رأيت لو أن أباً شيخاً كبيراً قد غاله
بنوه بعد ما أنفق فى سبيل سعادتهم عقله وحياته ودينه ؟ ! ولقد
سأل سقراط بعض تلاميذه أن يدافع عن نفسه فأبى ، وقال إن

الرائى
الصرح

حياتي وما قدمت من خير أكرم ما أعددت من دفاع ، ولقد
 جاء سقراط بعد ما ذهبت الحرب والوباء بكثير من الصالحين ،
 فلم تغفل أثينا عن آمالها ، وما كانت سياسة سقراط بعسيرة على
 الصالحين . ولكن سقراط قد آنس الدار مقفرة ممن حملوا راية
 المجد ، فوقف يدعو إلى دين الفاضلين ، وما كان أشبه مصير
 أثينا بمصير أبطالها بين عشية المجد وضحي الهزيمة أحداث
 مفاجئة فوق طاقة الأبطال ، وتشكل أثينا في الحرب طرفا من
 بنيتها ويذهب الوباء بطرف آخر ، ويجرد البطل من درعه
 وذخره وكأن أثينا والباقيين من أبطالها قد آنسوا سهام القدر ترمي
 مواطن القوة فيهم ، لأن أبناء الأمة الصالحين هم عتادها وقوتها
 وكان صوتاً يتردد في أفئدة المخلصين كالذي تردد في قلب
 الشاعر العربي :

سبقوا هوىً وأعنقوا الهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
 ولقد حرصت بأن أدافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع
 وإذا المنية أنشبت أظفارها ألقى كل تميمة لا تنفع
 وتهافت أبناء أثينا على الموت فتغيرت عندها آيات الأشياء
 وأشفق أبناؤها خيفة عليها . ونرى « توسيديد » يقصن أحاديث
 أثينا وهي تتردى بين أظفار المنية وهو يعلم ما يقول ، فإن هذه المنية
 قد بدلت قيم الأشياء في أنفس الناس . ونراه يصف كل شيء

من وقع ذلك البلاء ، فقد كانت أثينا في حرب « البيلوبونيز »
 تحارب « اسبارطة » على السيادة ، وآوت إلى أسوارها أهل القرى
 من بنيتها ، وتكدر الأثينيون في المدينة ، ولم يفجأهم إلا وباء
 لا حيلة فيه للأساة الذين جهلوا الداء والدواء معا ولا يكادون
 يقربون مرضاهم حتى يخرؤا هم ومرضاهم صرعى . وضلت حيلة
 الأساة فما أغنى علمهم عن الناس شيئا ، وهرع الناس إلى المعابد
 يضرعون إلى الله فما أغنت عنهم الضراعة شيئا ، وضل سعيهم
 فأقلعوا عن الضراعة والتأمم ، وغلبهم الموت فتهافتوا عليه مكرهين ،
 وحارت أبواب الناس فشاع فيهم أن « اسبارطة » قد دست لهم
 السم في الآبار .

ولا نحسب مؤرخاً يفسر ظاهرة الوباء تفصيلاً إلا أن يكون
 هذا الوباء هادماً لقيم غالية عزيزة ، ويأخذ الوباء بأبدان المرضى
 فيحرق أجوافهم بلهب شديد لا يطيقون معه مس الثياب
 ويتهافتون على الماء تهافت الفراش على النار ، ومنهم من يرمى
 بنفسه في الآبار لينقع ظمأً لا يرتوى ، ومن أفلت من محالب
 الموت لا يفلت من أثر الوباء . ومن الناس من يأكل الوباء
 أطرافه ويذهب ببصره ويعقبه نسيان يسيه نفسه وذويه . وجاء
 ذلك الوباء ببلاء لا يبلغه الوصف وجاوز طاقة البشر وعافت
 الطير والكواسر جثث الموتى فلم تقربها على كثرتها ، وهجرت

الطير سماء أثينا خوفاً من الموت ، وعافت الكلاب أصحابها رغم ما فطرت عليه من سجية المعاشرة ، وهلك المرضى ومن يقوم عليهم ومن ينج بنفسه يد ركه الموت وحيداً ، ومن يغلبه ضميره فيقرب صديقه هللكاً معاً ، وأقفرت بيوت كثيرة من أهلها وزاد المدينة بلاء ما تكدس في أسوارها من أهل القرى والذين فتك بهم الوباء فتكا ذريعاً فلم يكن لهم مأوى في المدينة سوى أكواح خانقة ، ونراهم هالكين أكواما بعضهم فوق بعض ويتمرغون في الطرقات ويتهافتون على منابع الماء ، وملئت المعابد بحشهم وضج الناس من هول النزاع وواروا موتاهم بما استطاعوا ولا ينظرون ما يفعلون ، ومن الناس من يلتقي موتاه فوق موتى الآخرين ثم يولى فراراً . ولا ريب أن « توسديد » لم يحفل بهذه الأحداث سدى ولم يرد أن يصور صورة تأخذ بالألباب وكفى ، ولكن هذه أحداث لها ما وراءها ، فهي ضياع لهذه القيم التي يقوم عليها مجد المدينة سيغير الموت ما شرع الأولون وتتضاءل عند الأحياء قيم المعاني الإنسانية فلم تكن أثينا يوم نزل بها الوباء قد تجاوزت زمانها السعيد ، كانت يومئذ عزيزة بأبنائها صالحة بالقسم العتيقة الموروثة ، فزلزلت آمالها من أثر الوباء والحرب ، وشيوخ الأثينيين يومئذ جعلوا يدكرون شعراً قديماً ستأتى الحرب الدورية ويأتى معها الوباء وقد أتى الوباء على المدينة بفوضى بالغة ،

فقد استباح الناس من اللذات ما استتروا من فعله من قبل ،
فقد رأوا أن السعادة قد تدبر عن السعداء فجأة ويأتيهم الموت
من حيث لا يشعرون ويذهب عمن مات ثراؤه إلى الفقراء نهياً ،
وجعل الناس يولون همهم شطر اللذات لأنهم آمنوا أن الإنسان
هالك ولا بقاء للمال والإنسان ، ولا يشتهي أحد أن يعنى نفسه
بغاية نبيلة لأنه لا يعرف متى تأتيه المنية ولا يدري أيدرك مأربه
قبل أن يلحقه الموت . وعدت اللذات بأى ثمن ومن أى طريق
غايات الجمال والخير ، ولا يخشى الإنسان الآلهة ولا القوانين
البشرية ، واستوت التقوى والفجور ، فقد رأوا الناس جميعاً هالكين ،
ومن ثم لا يدري أحد أيعيش حتى يكفر عن إثمه ، وأمليت على
الناس حكمة وهو أن يغموا من الحياة أية متعة قبل أن يفقدوها .
ويومئذ استطار في السياسة شر آفة لكل سياسة يوم لا
تكون السياسة إلا مغماً للفرد ومغماً للدولة ويوم يتشبه الساسة
بالعظماء وما هم بعظماء . وقد فكر الكتاب والشعراء والفلاسفة في
هذه الآفة وشغلت من حياتهم فراغاً كبيراً ، فمن الخير للأفراد
كما يقول « توسيديد » أن تسعد المدينة في مجموعها من أن يسعد
أفراد وتنهار المدينة ، لأن الفرد إذا نجح على حين سقطة من
المدينة فمصيره أن يسقط معها ، وإن خسر على حين نجاح
من المدينة فمصيره أن ينجح معها . فسعادة الدولة سعادة لكل

فرد ونكبة الدولة نكبة لكل فرد . ولا يغنى عن الأفراد ما لهم
ولا أولادهم ولا جاههم في وطن تعس كسير .

* * *

بعد هذه الأحداث والهزيمة قدم سقراط للقضاء ، فاتمه
متهموه بالكفر بآلهة المدينة وإفساد شباب المدينة . وقد أنصت
سقراط لتهم المتهمين دون أن يفزع من الكذب ، ورأى قضائه
يميلون كل الميل دون أن يروعه شبح الظلم ، ولم يكن سقراط
في حياته أكرم على نفسه من لقاء هذا الظلم . واستطاع متهموه
بفصاحتهم أن يثيروا نفوس القضاة وأن يخرجوا من تهمهم بالحكم
على سقراط بالموت . وقد كان ذلك العقاب ألماً على نفوس
تلاميذ سقراط ، فكتبوا بعد موته يبينون للأثينيين ما ظلموا ،
وكان أفلاطون أشدهم حنقاً على هؤلاء القضاة ، فكتب بعد
موت سقراط دفاعاً عن سقراط نأخذ منه ببعض هذه الصور
قال : « والآن أيها الأثينيون إنني بعيد كل البعد عن أن أدافع
عن نفسي كما قد يبدو لبعضكم ، ولكنني حريص على سعادتك
وأخاف ألا تحفظوا نعمة الله عليكم فتقتلوني ، وإذا قتلتموني
فلن تجدوا رجلاً مثلي ، ولا تتخذوا ما أقول لكم هزواً . إن الآلهة
قد جعلتني شوكة في جانب هذه المدينة ، لأكون « كالمهماز »
في جانب الجواد الكريم الذي قد يثقله عظمته فيخمل ولا بد له

تفح

٥٤

من شوكة المهماز لينشط . وكذلك أرسلني الله إليكم لأوقظكم
من سبلكم ولأقنعكم ولألوم كلا منكم ولا أكف عن ذلك كلما
لاقيتكم . ولا سبيل لكم أن تجدوا رجلاً مثلي . وأولى بكم إن
صدقتموني أن تطلقوا سراحي .. ومن يدري لعلكم تحقنوني على
فضر بونى كما يضرب النائم فى سبات عميق من يوقظه ، ثم
تقتلونى طاعة لآنتوس ، ثم تقضون بقية حياتكم من بعدى فى
نوم عميق إلا أن يرحمكم الله فيهبى لكم رجلاً مثلي ، وستعلمون
أنى لم أفعل ما فعلت إلا بقدر الله الذى قدرنى لكم ، فليس
من طبيعة البشر أن تروا رجلاً يغفل ماله وداره سنين عدداً ولا
يغفل عن سعادتك يوماً واحداً ويلقى كلا منكم على انفراد كما
يلقى الوالد ولده والأخ أخاه ، ويحرضكم على أن تتحلوا بالفضيلة
والعلم ، ولو أنى فعلت ما فعلت ابتغاء جزاء أو نصحتكم رجاء
أجر ، كان لى فيما فعلت مبرر . وإنكم ترون متهمى قد خلعوا
عذار الحياء فاتهمونى بكل إثم ، ولكنهم عجزوا عن أن يأتوا
بشاهد واحد ليشهد على أنى سألتكم يوماً ما جزاء أو شكوراً »

* * *

ومحا أفلاطون تهم المتهمين ببيان كيبان المحامين ، فدمغ الحجة
بالحجة ، وأزهق الباطل بالحق . فأما التهمة الأولى وهى أن سقراط
قد كفر بآلهة المدينة فالمسئول عنها فى رأى أفلاطون هو

« أريستوفان » الذى صور لهؤلاء القضاة مذ كانوا فتية سقراط
معلقاً فى الهواء يريد أن يكشف حجب الطبيعة ولا يؤمن بالله
ويؤمن بالسحاب وينصر الباطل على الحق ويعلم الناس الكفر ،
فشب أبناء أثينا من ذلك الجيل على صورة باطلة وهى أن كل
فيلسوف كافر ، فلما قدم سقراط للقضاة كان قضاته قد أعدوا
منذ الصبا لقبول هذه التهمة ، وأما التهمة الأخرى وهى أن
سقراط قد أفسد شباب أثينا ، فهى نعمة قد نغمها القضاة أنفسهم
على سقراط ، فإن سقراط وتلاميذه قد انطلقوا فى الأسواق
يكشفون عن جهل الجاهلين . وإن فئة من « فتية المدينة » قد
صاحبوني وهم الذين كان لهم من ثرائهم فراغ من الوقت فصاحبوني
غير مكرهين ، واستمتعوا بمذهبي فى امتحان الرجال ، وكثيراً
ما قلدوني فانطلقوا يمتحنون أقدار الرجال من بعدى ، وإخال
أنهم قد أثاروا حفيظة الذين يحسبون أنفسهم على شىء من العلم
وهم لا يعلمون من العلم شيئاً أو لا يكادون يعلمون منه إلا قليلاً
والذين أصابهم هذا الامتحان قد حنقوا على ولم يحنقوا على هؤلاء
الفتيان ، وقالوا إن رجلاً يسمى سقراط كافر مفسد للشباب .
وتجاوز أفلاطون عن القضية ليفصل حياة أستاذه تفصيلاً ،
وليبيين ورعه وتقواه وإيمانه وشجاعته ووفاءه لأتمته . وقد قال ما لم
يرد سقراط أن يقول ، وظهرت كرامة هذا الشيخ الحكيم غير

مرة على ريشة تلميذه أفلاطون الذي يعده القدماء أشعر الكاتبين
 « هذا أيها الأثينيون ما أدافع به عن نفسي والذي بقي لا يختلف
 عما قدمت من حجج . ولعل أحدكم إن نظر في نفسه فقارن
 بيني وبينه ثارت ثائرتة لأنه إن وقع في ضائقة دون هذه الضائقة
 وقف يبكي ويضرع ويبتهل ويذرف ما شاء الله أن يذرف من
 الدمع ، ويأتيكم بأطفاله ليستدر رحمتكم ويأتيكم بفوج كبير
 من أهله وأصحابه . أما أنا فلن أفعل من ذلك شيئاً وإن كنت
 ألقى أشد الأخطار كما ترون . . ولعل بعضكم إن ذكر لكم ذلك
 صغرت عليه نفسه فغضب وقضى على ، ولو أن أحداً منكم
 وجد هذا الشعور فإني أستطيع أن أحدثه بهذا الحديث :
 يا عزيزي إن لي أهلاً وعشيرة ولم أولد من حجر ولا من شجر ،
 كما يقول « هومير » ، ولكنني ولدت من البشر ولي أهل وبنون
 لي ثلاثة أبناء : أما أحدهم ففتى يافع ، وأما الآخران فصبيان
 صغيران ، ولست آتي بأحد منهم إليكم استدراراً لرحمتكم ، وما
 بالي لا أفعل ذلك أيها الأثينيون ! إنني لم أفعله عن تكبر ولا عن
 احتقار لشأنكم ، ولست بسبيل أن أبين لكم إن كنت ألقى
 الموت شجاعاً أم لا ، ولكني لا أفعل ذلك لأنني لا أراه جديراً
 بسمعتي ولا بشرفكم ولا بشرف المدينة جميعاً ، فليس يجمل بي
 أن أفعل ذلك بعد ما بلغت من العمر ما بلغت وأدركت من

الشهرة ما أدركت حقاً أو باطلا ، فقد شاع بين الناس أن رجلا يدعى سقراط قد تفرد على الناس بالفضل ، وإنه لمن العار أن يرتكب الذين أوتوا قدراً من الفضل في الحكمة أو في الشجاعة أو في فضيلة ما العجب من العجز والضعف حينما يقدمون للقضاء كأن الموت إحدى المكاره ، وكأنهم يحسبون أنهم خالدون إذا برأتم ساحتهم . إن هؤلاء يجرون على أممهم الخزي والعار ، فإن رأهم غريب حل له أن يقول إن زعماء الأثينيين الذين رفعهم الأثينيون إلى حكومتهم وآتوهم الصدارة في كل شيء .. أولئك يبكون من الأحداث كما تبكي النساء » .

* * *

وبين الحكم بالموت على سقراط وبين تنفيذه فترة من الزمن قضاها سقراط في السجن . وإن تلاميذه المصطفون الأخيار يقبلون منذ الفجر فيجتمعون على ربوة الخطابة التي اتهم عليها سقراط وكانت تشرف على باب السجن ، ثم ينتظرون حتى يفتح السجن لهم ويدخلون لدى سقراط يجادلونه في خلود الروح ، وكان سقراط يلقي الموت ببشر واطمئنان لأنه فاتحة حياة خالدة سعيدة . وآمن سقراط أن الصالحين العادلين خالدون عند الله وعند الطيبين الأخيار كما رأينا ، وهكذا قضى أعدل الناس كما يقول أفلاطون !!

ظهر حديثاً :

هاتف من الأندلس

للمغفور له الشاعر الناثر على الجارم بك

صفحة من صفحات الأندلس المليئة بالطرب والمرح
والحسد والغيرة والدسائس والمؤامرات كتبها فقيد الشعر
والنثر قبيل وفاته وجلا فيها قصة ولادة وابن زيدون
بأسلوبه المشرق الواضح (الثمن ٢٥ قرشاً)

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

ظهر حديثاً :

مأساة مايرلنج

للأستاذ محمد عبد الله عنان

دراسة تاريخية تحليلية مستقاة من الوثائق الإمبراطورية
النمسية عن مصرع الأرشيدوق رودلف ولى عهد
النمسا وعن تلك المأساة الخفية الغامضة المعروفة
بمأساة مايرلنج والتي كان لها الدوى العظيم فى الغرب
والشرق . (الثمن ٢٠ قرشاً) .

مكتبة الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

أفكارنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب في جميع مراحل النمو
المتعة والثقافة وسمو النفس .

الكتب التي ظهرت :

- | | | |
|---|---------------------|-------------------------------|
| ١ | عمرون شاه | تأليف |
| ٢ | مملكة السحر | للكاتب الفرنسي شارل بيرو |
| ٣ | كريم الدين البغدادي | تأليف |
| ٤ | آلة الزمان | عن الكاتب الإنجليزي ه.ج. ويلز |
| ٥ | الأمير والفقير | عن الكاتب الأمريكي مارك توين |
| ٦ | كتاب الأدغال | للكاتب الإنجليزي رديارد كبلنج |

ثمان الكتاب ١٠ قروش

تصدرها

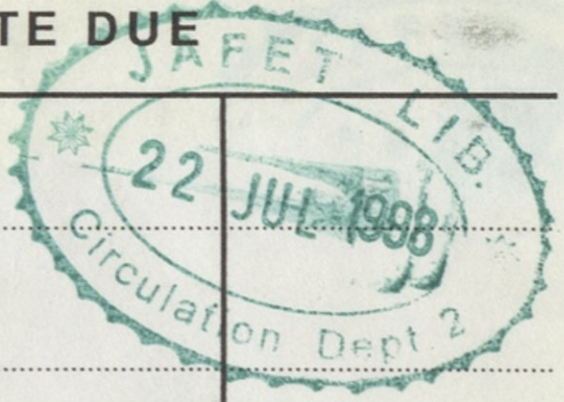
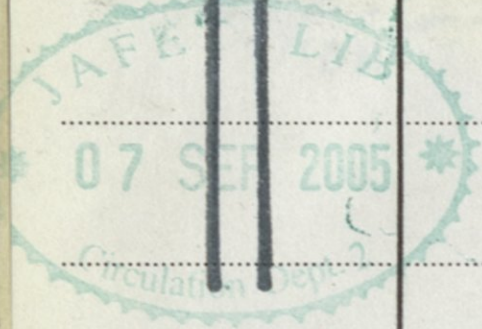
دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

TABLE

DATE DUE

11		22 JUL 1998
07 SEP 2005		Circulation Dept. 2



183.2:B151sA:c.1

بهنسی، علی حافظ

سقراط

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002691

Am

of Beirut

183.2

B151sA

183.2

B151sA

C.1